

على فراش الموت
بقلم
طاهر الطناحي
عنيت بنشره
دار الهلال
١٩٣٩

على فراش الموت

بقلم

طاهر احمد الطناحي

عُنيت بنشره

د[illegible]لال بمصر

سنة ١٩٣٩



« أوزوريس » اله الموتى عند الفراعنة . وقد جلس على عرشه ممسكا بصولجان القضاء فى احدى يديه . وفى اليد الأخرى سوط هو رمز للقوة . وفى أسفل رسوم لعــلامة الحياة



البعث

«أوزوريس» اله الموتى يهم بالعود الى الحياة وهو رمز البعث عند قدماء المصريين

مقدّمة

الموت جانب من الحياة الدنيا . . والحياة جديرة بأن تعرف بخيرها وشرها ، بنورها وظلامها ، بهنائها وآلامها

والخير والشر نسبيان ، كما أن نور الحياة وظلامها فى الحقيقـة متشابهان . وليس الهانىء الطروب ، بأسعد من المتألم المكروب ، ولا الخلىّ الباسم ، بأكثر حظاً من الشجىّ المتشائم . وقد جئنا من العدم ، وسنعود اليه ، وخرجنا من الأموات ، وسندخل طائعين أو كارهين الى قبورهم

والقبر ماثل بين حياتين : حياة مادية ، ندعوها الحياة الاولى ، وحيـاة معنوية ، أو روحية ، ندعوها الحياة الاخرى . وهى حياة طالما اشتهاها الكثيرون إما رغبة فى ثواب ، أو خلاصاً من عذاب . ولعل الموت فى عبوسه أجمل حالا من الحياة فى ابتسامها ، وأخف هولاً من الايام فى أشجانها

ما أعدل الموت من آت وأستره ... فهيجينى ، فانى غير مهتـاج
العيش أفقر منا كل ذات غنى ... والموت أغنى بحق كل محتاج
إذا حياة علينـا للأذى فتحت ... باباً من الشر لاقاه بارتاج

وفى ظلام الموت ما يبعث على اجتـلاء الغوامض ، وفى عبوسه ما يحفز الى اكتناه الحقـائق ، وفى آلامه ما يهذب النفس ، ويروض القلب على احتمال اعباء الحياة

وقديماً كان للموت مكان من التقديس عند الفراعنة ، ينظرون اليه كغاية لهذه الحياة ، وبداءة لحياة جديدة ، فرمزوا اليـه برموز عدة سميت آلهة ، كان أكبرها الاله « أزوريس » إله الموتى

والموت يطهر الحيـاة ، كما ينقل الاطهار الى حياة أرقى . وهو فى جلاله الرهيب ، ووقاره المهيب ، وسلطانه الشامل ، يتجلى فى أروع مظاهره ، وأبلغ عظاته ، حين يضرب أطنابه على فراش عاهل عظيم ، أو زعيم كبير ، أومفكر جليل

هناك ترى من روعة الموقف ، ماتقترن فيه عظمة الموت بعظمة الميت . ومن رهبة المأساة ، ما يمتزج فيه جلال المصيبة بجلال المصاب . فتشعر النفوس بأكبر وجود للفقيد ، وترى من شخصيته فى مماته ، ما حجب عنهـا أيام حياته ، وتفهم من معنى خلوده ، ما لا تفهمه أثناء وجوده . وكأنما الموت قـد خلع عليه حياة جديدة هى خير وأبقى من هذه الحياة الأولى . قال برنارد شو : « الحياة تسوى بين الناس ، والموت يبرز فضل ذوى الفضل »

ونحن الاحياء نعيش فى فضل الموتى من الزعماء والادباء والعلماء ، فقد بنوا لنا الحياة ، ومهدوا سبلها ، وأقاموا لنـا صروحها ، وملأوها نوراًمن سماء عقولهم ، ونشروا فى أردانهـا عطراً من زهرات نفوسهم ، وجملوا وجهها بجمال فنونهم ، وكانوا فى الحياة أحياء بجهادهم ، وفى الموت أحياء بآثارهم . فحق علينا أن نمجدهم فى قبورهم ، ونذكرهم فى مآسيهم ، ونتخذ من قصص مماتهم عبرة الأجيال للاجيال

وإذا كانت النفس الانسانيـة مجبولة على حب التحول من حال الى حال ، تواقة الى التنقل من لون الى لون ، فانها لتجد فى الحديث عن الموت بعدما سئمت حديث الحياة ، رياضة ذهنية ، ولذة روحية ، وإيماناً بالتضحية فى سبيل المثل الأعلى ، ما دام هذا الحدث الدنيوى هو نهاية كل حى

وفى هذا الـكتاب فصول عن الموت ووصف قصصى لمآسى طائفة من اعلام الشرق العربى في العصر الحديث ، ولما يحيط بكل مأسـاة من حوادث تاريخية وطرائف أدبيـة ، وذكريات وطنية موثوق بهـا ، تتعلق بالأيام الاخيرة لهؤلاء الاعلام ، مما يتسق فى سياق المقام . وقد كتبت ذلك لما قدمت ، وأنا مؤمن بأنى أعمل عملا جديداً ، يتمشى مع ناموس الحياة الذى يأتى بكل جديد

طاهر الطناحى

العلم والموت

بقلم الدكتور مصطفى فهمى سرور بك

تفضل النطاسى الكبير الدكتور مصطفى بك فهمى سرور
أستاذ علم الامراض بكلية الطب بجامعة فؤاد الاول بالقاهرة ،
فقدم هذا الكتاب بهذا البحث القيم   (المؤلف)

لما عنى صديقى الكاتب المتفنن الأستاذ طاهر الطناحى بوضع هذا الكتاب ، سألته : « لماذا اخترت هذا الموضوع ؟ » ، فأجاب قائلا : « لأنه شائق جديد » . وكنت أعهده مولعاً بالجديد ، تواقاً إلى التفنن والتجديد ، حتى لو كان الجديد موتاً يتخذه موضوعاً للكتابة ، ويعرضه فى لباقة واقتدار وتشويق إلى الاطلاع ، فأعجبت بالفكرة ، ورجوت له ولنا الحياة الطويلة . . . وأحببت أن أقدم هذا الكتاب النفيس بهذا الموضوع :

الخلية الحية هى وحدة الحياة . وهى صغيرة جداً لاترى بالعين المجردة ، بحيث يمكن أن يجتمع الملايين منها فى مليمتر مكعب واحد . وهى مكونة من مادة هلامية شفافة ، فى وسطها نواة صغيرة يظهر أنها تنظم وتدبر شئون الخلية . وتقوم النواة بوظيفة مهمة جداً فى عملية انقسام الخلية . وهذا الانقسام هو واسطة تكاثرها ومحافظتها على جنسها

نحن لا نعلم — حتى الآن — شيئاً عن كنه الحياة فى الخلية . ونعرف الحى بمظاهر الحياة فقط ، وهى التغذية والتوالد والحركة الذاتية

كذلك يجهل العلم — حتى الآن — كنه الموت . ونعرف الميت بفقدان مظاهر

الحياة فقداناً دائماً . فاذا ماتت خلية حية « سليمة » « فجأة » ، وفحصناها بالميكرسكوب بعد موتها « مباشرة » ، لما عثرنا على أى تغيير فى جسمها يدلنا على أنها فارقت الحياة

والمهم هنا أن تكون الخلية « سليمة » وموتها « فجأة » ، وأن يتم الفحص بعد الموت مباشرة ـ لأن الخلية إذا كانت مريضة ، وماتت فجأة ، وأسرعنا فى فحصها عقب موتها ، وجدنا بها «التغيرات المرضية». وهى ليست من مظاهر الموت

أما اذا كانت سليمة ، وماتت فجأة ، وفحصت بعد زمن طويل من موتها ، فان التغيرات التي تشاهد بها هى تغيرات رِميّة ، وهى أيضاً ليست من مظاهر الموت ، بل هى تغيرات كيمياوية تحصل فى الجسم الميت كما تحصل فى أى مادة عضوية . وقد أوردنا ما سبق بشىء من الاطناب لنؤكد أنه لا توجد لدينا الآن تغيرات تشريحية للخلية يستدل منها على الموت

وما قلناه فى الخلية الحية الواحدة ينطبق على الأحياء الكبيرة المركبة من ملايين الملايين من الخلايا الحية . ذلك لأن مميزات الحياة الرئيسية فى الحيوان الدنىء ذى الخلية الواحدة هى هى عينها فى الأحياء الكبيرة كالانسان والحيوان

وهاك بعض حقائق مهمة عن الموت فى الأحياء الكبيرة :

حينما يموت حيوان كبير كالانسان ، يقف قلبه أولا ، أو يقف تنفسه أولا . ثم تتعطل فيه مظاهر الحياة العامة ونحكم بموته . ولكن الواقع أن خلايا جسمه على حدتها تبقى حية مدة تختلف طولا وقصراً باختلاف نوع النسيج ، فمثلا خلايا نسيج المخ تموت سريعاً بعد الموت العام ، فى حين أن خلايا الجلد وخلايا العظام والغضروف تعيش زمناً أطول مما تعيشه الخلايا الأخرى . وهكذا لا تموت خلايا الجسم كلها مرة واحدة بموته العام

والحى إذا مات « فعلا » استحالت عودته الى الحياة مرة أخرى على كوكبنا الأرضى ـ والمهم أن يكون الموت قد وقع « فعلا » ـ وبذلك تخرج حالات الاغماء الطويل المدى ، وتخرج حالات الاغماء العصبى العميق ، وهى الحالات

التي تتعطل فيها كثير من مظاهر الحياة الثانوية ، وتخف فيها مظاهر الحياة الرئيسية كنبض القلب والتنفس ، حتى قد يشكل الأمر على طبيب يفحص الجسم ، فيقرر الوفاة ، وما حدثت وفاة فعلا ، وانما هو إغماء ، وحياة معلقة بخيط رفيع

لهذا كانت العادة ألا يدفن ميت إلا بعد مرور وقت معين للتحقق من وفاته ، ولهذا أيضاً انتهى الاطباء الى ضرورة الاستمرار في عمل التنفس الصناعى والحقن بالمنبهات فى أحوال الغرق وأحوال الموت تحت البنج مدة أطول مما كانت فى الماضى . وباطالة مدة الانقاذ زاد عدد الناجين من الغرق ومن تسمم البنج الحاد

وليس هذا فقط ، بل يتحتم على من يعنون بشئون المرضى ألا يقطعوا الأمل فى شفائهم مهما اشتد الخطر وعظمت وطأة المرض ، واعترى المريض ضعف شديد ، واغماء طويل . بل ينبغى أن يثابروا على العناية التامة ، المنتظمة المستمرة ، حتى يقضى الله أمراً كان مفعولا . وفى ذلك ضمان لزيادة النجاة من شديد الامراض . . وانى أكتب هذا مقتنعاً بصحته عن خبرة شخصية بنيت على عدة حالات لأشخاص هم الآن أحياء ، والفضل فى ذلك لارجاع الأمل فى صدور أهلهم وممرضيهم ، واستمرار العناية الشديدة بهم حتى فازوا بتمام الشفاء

لكن ليس معنى ذلك اننا نستطيع ان نتغلب على الموت ، فانه بالرغم من كل عناية ، فان كل حى سيموت لا محالة (أعنى بعد عمر طويل !) يستوى فى ذلك الحيوان والنبات

وما الموت فى ذاته بالمصيبة العظمى كما نعتبره ـ إلا فى نظر من يهمهم أمر الميت . ذلك ان القصد الاسمى لمنظم الكون هو بقاء الجنس ، وما دام هذا متوافراً ومضمونا . فقد وجب ان تخف علينا مصيبة الموت ، خصوصاً إذا كان فناء الأفراد المستمر يضمن حسن حياة الاجيال الصغيرة المتجددة بتوالد الاجيال السابقة . فاذا صح ذلك ـ وهو صحيح ـ فان لنا فى موت الافراد حياة للجنس

دكتور مصطفى فهمى سرور

الموت عند الشعوب

آثرنا أن يكتب عن الموت من الناحية الطبية الدكتور مصطفى فهمى سرور بك أستاذ البتالوجيا بكلية الطب ، لأنه طبيب ، ولأنه أخصائى فى علم الأمراض . ولنتكلم هنا عن الموت من الناحية التاريخية والروحية

فالموت معضلة قديمة تعب فى حلها الانسان منذ نشأته الاولى ، وقد حاول فى أطواره المختلفة أن يحل هذه المعضلة ، ويلمس جانب الحقيقة فيها ، فتباينت حلوله ، وتعددت آراؤه ، حسب تباين العصور التى عاش فيها ، وطوعاً لتعدد البيئات التى نشأ بها ، والتعاليم التى تلقاها ، والعقائد التى آمن بها ، والاوهام التى سيطرت عليه فى بعض الاحوال . فهام فى الظلام حائراً أمام أسرار الكون

وقد فكر الانسان فى الموت ــ ولعله الحيوان الوحيد الذى فكر فى نهاية الحياة ــ لأنه وهب فكراً ، والفكر مخلوق متحرك لا يقف عند حد . ولأنه بما جبل عليه من حب الحياة ، وحرصه عليها ، وغرامه بها ، لا يستطيع أن يتصور لنفسه وجوداً موقوتاً ، لا وجود بعده ، فهو يفكر و يبحث ، ويريد استكمال هذا الوجود بعد تلك النهاية المحتومة ، ولو كان الوجود الآخر بالذكر الخالد ، أو بالولد النابه ، أو بالروح فى حياة ثانية ليست كالحياة التى نحياها . ويستوى فى ذلك المؤمنون والملحدون

وكان الانسان القديم يعتبر الموت نهاية الحياة ، وخاتمة فصلها الأليم . وكانت الاديان القديمة كالبوذية فى شكلها الاول ، لاتعنى بما بعد الموت ، وكانت القبائل البدائية تعتقد أن الموت الطبيعى لا يحدث الا بالسحر ، أو بالشيطان . وكان المرض فى اعتقادهم شيطانا يعترى الجسم ، ويريد أن يفتك به ، فيستعينون

فى علاجه و إخراجه بالتعاويذ . وما تزال بعض قبائل غرب أفريقا الى الآن تعتقد أن الموت « جريمة » ارتكبها بالسحر شرير من أعداء الميت . ولهذا يضعونه إثر موته فوق أغصان الشجر ، ويحمله أربعة رجال ، يقفون ، ثم يأتى رئيس القبيلة ، فيسأل الميت قائلا :

— هل كان موتك بالسحر ؟

فاذا ظل الرجال الاربعة ثابتين فى أماكنهم كان معنى ذلك أن الميت يجيب بالنفى . أما إن تحركوا ، فان هذه الحركة تدل على أن الميت يتألم ويشكو لأنه مات بالسحر . على أنهم فى بعض الاحيان يعتقدون أن الميت هو الذى ارتكب جريمة الموت اذا كان ساحراً ، لأن عمله ينقلب عليه

و بعض العامة فى بلادنا يخشون على أطفالهم وأقاربهم من الموت « بالعين » وينسبون اليها كثيرا من حوادث الموت . وتأثير العين عندهم ، كتأثير السحر عند تلك القبائل

* * *

ولم يفكر قدماء المصريين قبل عهد الاسرات فيما بعد الموت . وكان اعتقادهم فى الموت لا يختلف عن اعتقاد الامم البدائية من أنه نهاية كل حى . ونصيب الانسان فى هذه النهاية كنصيب النبات ، يذوى ويموت ، ثم يندثر ويؤول الى العناصر الاولى . ولما ارتقت حضارتهم ، وتقدمت حياتهم العقلية صاروا يعتقدون أنه انتقال من حياة الى حياة ، ومن ظلام بشرى ، الى نور إلهى ، حتى أطلقوا على تابوت الموتى اسم « نبعنخ » ومعناه « سيد الحياة » ، وأطلقوا على القبر « حت نت نحح » أى « قصر الابدية » ، وعلى الميت اسم « اوجا إن عنخ » أى « الذاهب الى الحياة » ، وكذا « حتب ام عنخ » أى « المستريح فى الحياة »

والانسان عندهم يتكون من شيئين « خعت » وهو الجسم ، و « با » وهو الروح . ولكل انسان قرين يدعى « كا » يتشكل بشكل الجسم ، ويبقى حياً

مع الميت فى قبره . ومن أجله وضعوا فى القبر الاطعمة التى كان يهواها فىحياته ، والادوات التى يستعملهـا ، ظانين أنه متى ترك وحيداً اعتراه الجوع والظمأ ، وهاجمته وحوش مخيفة تهدده بموت آخر ، فاذا تليت الدعوات ، وأقيمت الصلوات على الميت نال بسببها الطعام والشراب والادوات ، ودفعت عنه الآلهة هذه الوحوش

ثم ارتقت فـكرتهم عن الحيـاة الأخرى ، فاصبحوا يعتقدون أن أعمال الانسان فى حياته الأولى هى التى تضمن له السعادة ، أو تؤدى به الى الشقاء بعد الموت . وهـذه الاعمال تعرض على مجلس مؤلف من ٤٢ قاضياً يرأسهم الاله «أزوريس» إله الموتى . وهناك ميزان توزن به اعمال الميت ، فمن رجحت موازينه نجا وفاز بالسعادة الباقية ، ومن خفت موازينه لقى العذاب الاليم . وقد اعتقدوا أن جوارح الانسان فى الآخرة تشهد عليه ــ وجاء ذلك فيا بعد فى الدين الاسلامى ــ قال تعالى : « يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وارجلهم بما كانوا يعملون »

ومن دعوات قدماء المصريين الدينيـة المأثورة : « يا قلبي . . يا قلبى الذى يأتى من أمى . . قلبى الذى كنت به فى الارض ، لا تـكن شـاهداً على ، ولا تختصمنى ، لأنك رئيس قدسى . ولا تتهمنى بشىء أمام المعبود الـكبير »

وقد قال ماسبرو ــ ونقل عنه المرحوم احمد كمال باشا ــ: ان اغلب المصريين القدماء كانت لهم معرفة قليلة بما يؤول اليه « كا » بعد الموت . ومبلغ علمهم فى امره انه متى دخل القبر استقر وعاش فيه ولا يفارقه إلا طلباً للزاد والقوت . فاذا خرج من جدثه هام فى القرى ، والقى بنفســه على المآكل ، وحسد الاحياء ، وتعمد الانتقام منهم بسبب اعتزالهم له ، فيأخذ فى ازعاجهم ، واصابتهم بالامراض ، وقد يضر بعض الناس بلا سبب اذا كان رديئاً ، فتحمله رداءته على ايذائهم ، حتى ذوى القربى

واستدل على ذلك بتاقيل عن كاتب مصرى يدعي « كيبى » كانت زوجته « عنخارى » تأتيه بعد موتهـا كل ليلة ، ويظهر شبحها له فى شكل مخيف ،

فيتفنن فى تعذيبه ، مع أنه كان باراً بهـا فى حياتها ، وفياً لها بعد مماتها ، فأقام لها مأتما عظيما ، وأوقف للصدقة عليها عقاراً كبيراً . فلما استمرت فى تعذيبه عدة أشهر كتب لها رسالة قال فيها :

« منذ تزوجتك لم أسىء اليك ، ولم افعـل منكرا يغضبك . . فما جوابك اذا وقفنا امام « أزوريس » وقضاة الآخرة ، وقضوا عليك بالعقاب . ثم ماذا يكون اعتذارك ؟ »

وأمضى الرسالة ، وعلقها فوق تمثال من الخشب ، فخافت الزوجة « الكا » سوء العاقبـة . و « كا » عندهم من الارواح مثل « با » . وهناك روح ثالث يدعى « خو » أى المنير ؛ فللانسان فى اعتقادهم ثلاثة ارواح

وسواء أكانت الروح واحدة ، أم متعددة ، فان القصة السابقة من الحوادث الواقعية التى تؤيد ما يذهب اليه علماء « الاسبرتزم » أى المباحث الروحيـة فى العصر الحديث مثل كاميل فلامريون ، واولفرلودج ، ووليم كروكس ، وغيرهم ممن يعنون بالتجارب الروحية ، لاثبات ان للانسان حياة اخرى ، وان روحه باقيـة بعد موته ، ويمكن الاتصال بها ، وان هذا الموت الذى يعترى الجسم ليس فناء نهائياً ، بل هو انتقال من عالم مادى الى عالم روحى خالد

وقد كانت فـكرة البعث والجنة والنار موجودة عند قدماء المصريين قبـل الاديان الحديثة بآلاف السنين ، وكذلك الحساب ، والميزان الذى توزن به الاعمال لتقرير المصير ، فاما إلى النعيم ، واما الى الجحيم . وفى بعض النقوش والرسوم التى وجدت على الاحجار ، أو فى الاوراق البردية رمز الجنة والنار ، فترى الاطعمة موضوعة فى مجلس « أزوريس » اشارة إلى الجنـة ، والاسد رابضاً متحفزاً إشارة إلى النار

والجنة عنـدهم قائمة فى مكان خصيب يانع الثمر ، يبلغ ارتفاع القمح فيه سبع أذرع ، وطول السنبلة وحدها فيه ذراعان ، ولا شاغل لسكان الجنة سوى التمتع باللذات

وقد جاءت الاديان الحديثة بتأييد الحياة بعد الموت ، بل من القواعد الرئيسية فى الاسلام ، الايمان باليوم الآخر مع الايمان بالله وملائكته وكتبه ورسله . وتحدثت الكتب المقدسة عن الروح ، ووصفت الحياة الاخرى وما يجرى فيها ، وما سوف يناله الصالحون من جنة فيها مالا عين رأت ، ولا أذن سمعت . وما يلاقيه المجرمون من نار « وقودها الناس والحجارة عليها ملائكة غلاظ شداد لا يعصون الله ما أمرهم ، ويفعلون ما يؤمرون »

وقد شايع الفلاسفة العقليون الاديان الحديثة فى ثبوت الحياة بعد الموت . أما الفلاسفة الماديون ، فيعتقدون انه لا فرق بين النبات والانسان فى العدم . ويستدلون بالخوف الطبيعى من الموت ، على الفناء النهائى الذى يلحق الانسان بموته دون أن تتلوه حياة أخرى ، ويقولون انه اذا كان هناك حياة أخرى لما جزع الانسان من الموت هذا الجزع العظيم

يهال التراب على من ثوى فآه من النبأ الهائل

لكن الفلاسفة العقليون يردون على ذلك بان الخوف من الموت ناشىء عما جبل عليه الانسان من حب الخلود

وهذا الحب الذى يشعر به على الدوام يدل على شعوره الخفى بان هناك وجوداً دائما قدره الخالق للروح ، وإلا لما أحس الانسان هذه الرغبة الشديدة فى الحياة ، وهذا الشوق القوى إلى البقاء . أما تعلقه بالحياة الاولى فهو لعمران الارض، ولفائدة المجتمع ، ثم لأنه يجهل الموت ، أو يخاف ألمه ، ويستوى فى هذا الاحساس الطبيعى العالم والجاهل ، والكبير والصغير ، والصالح والطالح

وخوف الردى آوى إلى الكهف أهله
وكلف نوحاً وابنه عمل السفن
وما استعذبته روح موسى وآدم
وقد وعدا من بعده جنتى عدن

لماذا نخاف الموت

« ليت عندى من القوة ما يمكننى من تحريك القلم ، حتى أشرح سهولة الموت ولذته »

ذلك ماقاله العالم الانجليزى الكبير « وليم هنتر » وهو على فراش الموت يجود بنفسه الاخير . ويبدو للقارىء أول وهلة ان هذا العالم لا يعنى الواقع ، وانه يريد باللذة ما يشعر به من الخلاص من أعباء الحياة الثقيلة . أما الجسد ، فانه يتألم بخروج الروح ، ويتعذب بسكرات الموت ، لان الانسان قد فطر على الخوف من الموت ، وتخيله شبحاً هائلا مروعاً ، يقبل فى ظلام ، وينزل بالاهوال والآلام ، فيجفل من ذكره ، ويشعر فى أعماق نفسه بكرهه ، ويلتمس النجاة منه الى الابد لو استطاع إلى ذلك سبيلا

والخوف من الموت عند الشيوخ أكثر منه عند الشباب، لان الشيخ اعتاد الحياة ، ومن اعتاد شيئاً ألفه ، وان كان فيه ما يؤلمه

واذا الشيخ قال أف فما ملّ   حيـاة وانمـا الضعف ملاّ

وقد قال الفيلسوف الفرنسى « شارل رينوفييه » قبيل موته بأيام ، وكان قد بلغ الثامنة والثمانين :

« عند ما يكون الانسان شيخاً ، وقد اعتاد الحياة ، يصعب عليه كثيراً ان يموت . وأرى ان الشبان أكثر خضوعاً للموت من الشيوخ ، فانه حينما يجوز الانسان الثمانين يصبح جبانا ، ويكره ان يموت ، ومتى تحقق دنو أجله تحزن نفسه وتتململ . وقد درست هذه المسألة من كل وجوهها ، وراجعت فى ذهنى مراراً علمى بدنو أجلى ، ومع ذلك لم أتمكن من ان أقنع نفسي بأنى ميت عما قليل . ليس الذى يهلع فى نفسى من الموت هو « الفيلسوف » لأن الفيلسوف لايصح ان

يخاف الموت ، بل « الانسان القديم » هو الذى يخافه ، فهذا الانسان لا شجاعة له ، ليذعن ، مع انه يجب ان يذعن لما لا بد منه »

نعم الانسان القديم هو الذى يخاف الموت ، ويتوهم ان له آلاما . ونحن انما نخاف الموت بهذا الشعور الوراثى القديم ، أما الموت فى حقيقته ، فليس جديراً بأن نخافه هذا الخوف العظيم

ونحب ان نتكلم عن الخوف أولا وعن منشئه . وللقدماء والمحدثين فى ذلك آراء كثيرة ، وهو على كل حال يعرض من توقع مكروه وانتظار محذور . ولكن لماذا نتوقع المكروه وننتظر المحذور ، وهما من الأمور الممكنة التى تحدث أو لا تحدث ؟

والجواب عن ذلك ان الانسان وجد فى هذه الحياة وهو محوط بكثير من القوى الطبيعية التى تغالبه ، وأنواع الحيوان التى تنازعه البقاء . وكان لا بد له ـ وقد فطر على حب الحياة كما فطر عليها كل حى ـ ان يكافح هذه القوى المختلفة ، فاما غلبته وإما تغلب عليها . وقد ذهب ضحية هذا الكفاح بين الطبيعة والانسان ، وبين الانسان والحيوان ، أرواح انسانية كثيرة عذبت وتألمت وفقدت هذه الحياة التى كانت تحرص عليها وتكافح من أجل الاحتفاظ بها

ورأى الانسان ما حل بأخيه الانسان من هذه الحوادث المحزنة وذاك الصراع المؤلم ، وشاهد قبل تحضره كيف تنتهز الوحوش غفلته فى الظلام وفى الاماكن الموحشة فتفترسه ، أو تخطف أطفاله ، أو تغتصب مادة حياته ، فنشأ عنده الحذر منها ، وأصبح يخشى ان يقع فريسة لها ، وصار يتجنب السير فى الظلام وفى الاماكن الخالية ، وجعل يحذر أطفاله من السير ليلا أو فى تلك الاماكن حتى لا يعرضوا أنفسهم لافتراس الوحوش . وروى لهم القصص المخيفة ليزيد فى تحذيرهم ، فرسخ هذا الحذر فى نفوسهم ، وانتقل الينا بواسطة العقل الباطن ، فورثناه نحن فيما ورثناه من طباعهم وأخلاقهم ، وأصبحنا على الرغم من وسائل الأمن المختلفة نخشى الانفراد حتى فى الاماكن المعمورة ،

ونستوحش من الظلام حتى فى غرفنا الخاصة ، وتهز أعصابنا الخيالات القديمة التى كان يتخيلها أسلافنا ، والتى انتقلت الينا فى عقلنا الباطن ، وهى فى الحقيقة أوهام باطلة لا يحسن التسليم بها

ولكن بقيت هناك أمور يخافها الانسان غير الظلام والأماكن الموحشة كفوات مطمع من المطامع أو ضياع شىء عزيز عليه . وأساس ذلك الخوف التشاؤم والأنانية وحب النفس وكثرة التفكير فى الاخفاق وعواقبه ، ولو أن الانسان استشعر دائما التفاؤل ، وشغل نفسه بالأمل القوى والتفكير الصالح ، واطمأن إلى انه ناجح فى كل عمل يزاوله وفى كل مشروع يقدم عليه ، إذن لما وجد سبباً للخوف من فوات مطمع أو ضياع شىء منه

على ان كل أمر يخافه الانسان إما أن يقع أو لا يقع ، أى ان وقوعه وعدم وقوعه من الممكنات التى تتساوى ، فلماذا يرجح وقوع ما يخافه على عدم وقوعه ؟ . وقد أحسن من قال :

وقل للفؤاد ان ترى بك نزوة من الروع أفرخ أكثر الروع باطله

***

ولكن هناك أمراً يخافه الانسان وهو لابد واقع ـ وهو الموت ـ فلماذا يخاف الانسان الموت ؟ وكيف نعالج هذا الخوف ؟

يخاف الأنسان الموت لأنه يجهل الموت ولا يدرى ما هو على الحقيقة ، ولا يعلم إلى أين تصير نفسه ، أو لأنه يظن أن للموت ألما شديداً غير ألم الامراض التى قد تتقدمه وتؤدى اليه ، أو لأنه يعتقد انه ستحل به عقوبة بعد الموت ، أولأنه يأسف على ما يخلفه من المال والمقتنيات

والسببان الأولان عامان عند جميع الناس ، فكل انسان يخاف الموت لأنه يجهل حقيقته ويجهل مصيره ، ويظن بل يعتقد ان للموت ألما شديداً غير ألم الامراض التى تتغلب على الجسم وتفقده الحياة . أما السببان الآخران فقد يكونان عند بعض الناس دون بعضهم الآخر . ففريق منهم يؤمن بالعقوبة

ويخافها ويخاف الموت لأجلها ، وفريق منهم لا يؤمن بها ولا يعتقد انه سيعاقب بعد الموت كالدهريين والملحدين مثلا ، ولـكنهم يخافون الموت أيضاً . وكذلك الأسف على المال والمقتنيات ليس عند جميع الناس . فقد يموت الشخص ولا مال عنده ولا عين لديه يقتنيه ، ومع ذلك فهو يخاف الموت أيضاً ولو كان معذبا بالحياة ، ولو لم يكن عنده شيء يأسف على فراقه (١)

والخوف لهذه الأسباب كلها لا يصح الاقتناع به . وينبغى ألا يقع الانسان فريسته ، لأن الموت ليس بشيء أكثر من ترك النفس استعمال آلاتها وهى الأعضاء التى يسمى مجموعها بدناً ، كما يترك الصانع استعمال آلاته . والنفس جوهر غير جسمانى وهى ليست قابلة للفساد . ويؤيد هـذا الرأى من الوجهة العلمية فى العصر الحديث علماء الأرواح ، فقد برهنوا على بقاء الروح بعد مفارقة الجسم ، وامكان مخاطبتها بتجارب واقعة وحوادث مشاهدة يغلب على الظن تصديقها ، بل قد تضطر الانسان إلى تصديقها فى بعض الاحيان ، وقد أصبحت عند هؤلاء العلماء من الحقائق الثابتة التى لا جدال فيها

فاذا كنت تخاف الموت لأنك تجهله وعلمت هذه الحقيقة ، هان عليك الموت ، واطمأننت إلى هذا المصير الذى تتخلص الروح فيه من أدرانها الجسمانية ومتاعبها الدنيوية

أما إذا كنت تخاف الموت لأنك تعتقد ان له ألما شديداً غير آلام الأمراض التى تتقدم الموت فهذا اعتقاد لا أساس له ، لأن الألم يكون للجسم الحى المحتفظ بأثر الروح . والجسم انما يحس ويشعر بهذا الروح ، فاذا صدم أو جرح أو حدث له حرق او مرض تألم لأن احساسه موجود بوجود روحه . اما الموت فانه زوال لهذا الاحساس ، وفراق لما كان يحس به ويتألم . فالمحتضر لا يشعر بآلام عنـد مفارقة الروح ، ويؤيد ذلك استسلامه وهدوءه ساعة خروج الروح ،

---

(١) استعنا فى بعض ذلك برسالة عن الخوف من الموت للفيلسوف « ابن مسكويه » احد فلاسفة القرن الرابع الهجرى

فلا ترى له حركة ولا تسمع له تأوهاً ولا أنيناً كما كنت تشاهد ذلك منه قبل سكرات الموت . ولهذا فان أى مرض من الامراض مهما قل شأنه يشعر الانسان بألمه لبقاء روحه فى الجسم ، وهو جدير بأن يخافه الأنسان لا ان يخاف من الموت

أما من يخاف الموت لأنه يعتقد أنه ستحل به عقوبة بعده ، فليس فى الحقيقة يخاف الموت وانما يخاف العقوبة . ومن اعترف بحاكم عدل يعاقب على السيئات لا على الحسنات ، فهوخائف من ذنوبه لا من الموت . ومن خاف العقوبة فالواجب عليه ان يحذر الذنوب

أما من زعم انه يخاف الموت لأنه يحزن على ما يخلفه من أهله و ولده وماله ، و يأسف على ما يفوته من ملاذ الدنيا وشهواتها ، فهذا الذى يحزن هـذا الحزن و يأسف هذا الأسف انما هو أنانى محب لذاته ، واذا تذكر ان فى الحياة إلى جانب هذه اللذة والمتاع آلاما مختلفة ومفاجآت متنوعة ، ومتاعب تنغص عليه هذه الملاذ ، ثم اذا تذكر ان كثيراً ممن سعدوا فى هذه الحياة بأموالهم وأولادهم قد فارقوا هذه الحياة ، وان من بقى منهم لا بد له من هذا المصير ، وان جميع من فى الأرض فى تلك النهاية سواء ــ نقول إذا تذكر ذلك كله هان عليه الموت ، واحتقر هذه الحياة وثنى من عنان حرصه وطمعه

و بعد ، فهل تجد بعد ذلك سبباً وجيهاً للخوف من الموت ، وهل تظن انه مؤلم حقا ؟

انك إذا استعرضت ما أسلفناه وآمنت به ، فلست تجد فى الموت ما يخيف ، ولست ترى ما كان عندك من الخوف إلا وهما باطلا . وقاتل الله الوهم فانه يمثل الضعيف قويا ، والقريب بعيداً ، والمأمن مخافة

قال جوته الشـاعر الالمانى ، وهو على فراش الموت يجود بنفسه الأخير : « زيدونى نوراً . . زيدونى نوراً »

جمال الموت

فى متحف برلين أوراق بردية كتبت باللغة الهيروغليفية فى الدولة الوسطى بمصر القديمة . ومن هذه الأوراق صفحة فيها هذا النشيد باسم « حديث الروح لرجل سئم حياته » وقد أثبتنا ترجمته هنا بعنوان « جمال الموت » مع المحافظة على الاصل

الموت أمامى اليوم يبدو كأنه الشفاء لرجل مريض
كأنه النعيم بعد الشقاء

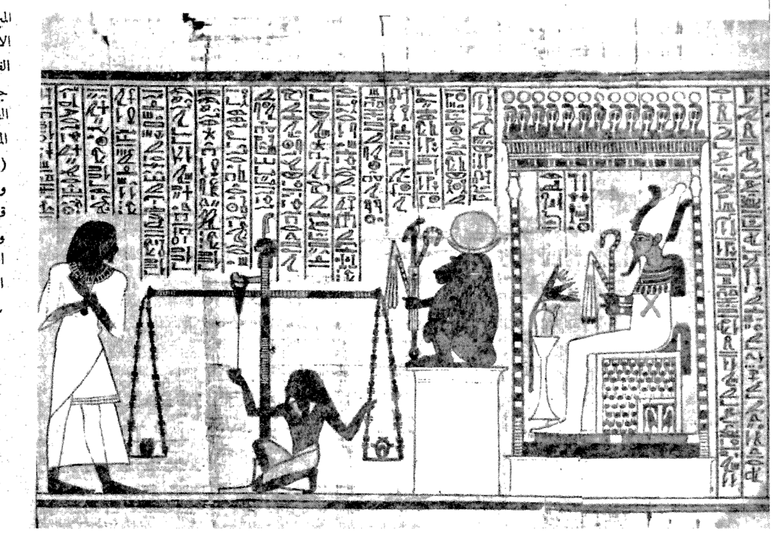
الموت أمامي اليوم يبدو كأنه رائحة الروض الأريض
كأنه الخلاص من عاصفة هوجاء

الموت أمامى اليوم يبدو هو بهجة زهر اللوتس
هو نشوة المتأمل فى الجمال

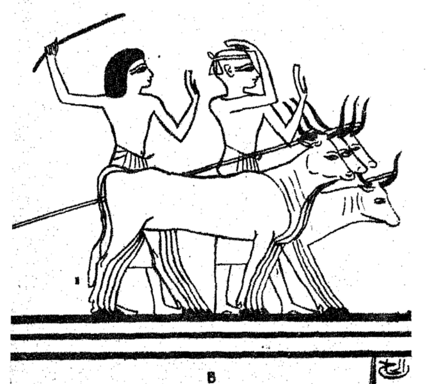
الموت أمامى اليوم يبدو هو راحة العانى البائس
هو عودة الجندى من النضال

الموت أمامى اليوم يبدو كأنه وجه السماء الصافية
كأنه لذة العلم عند العلماء

الموت أمامى اليوم يبدو كأنه شوق السجين الى الحرية
بعدان قضى سنوات بين السجناء



الميزان الذى توزن به أعمال الانسان فى الآخرة كما كان الفراعنة يعتقدون . وقد جلس الاله أوزوريس فى الصدر الى اليمين ، ووقف المتوفى فى طرف الصورة (الى الشمال) فى ثياب بيضاء ، وبينهما تحوت فى صورة قرد يكتب أرقام الميزان ، وقد وضع قلب المتوفى فى الكفة اليمنى ، ووضع فى الكفة الأخرى ثقل على شكل إناء ، وجلس الوزان يراقب عملية الوزن



جنازة فرعونية

صورة جنازة أحد الموتى عند الفراعنة . وترى في القسم الاعلى من الصورة ، عربة الميت وداخلها الجثة ، ويجرها أربعة ثيران . وفي القسم الاسفل ، ترى المشيعين والكهنة ، وقد وصلوا بالميت إلى المقبرة . وقد أوقفت الجثة المحنطة لوضع الماء المقدس في الفم ، وخلف الجثة رسم الاله أنوبيس إله التحنيط

A



C



جولييت على فراش الموت ، وقد انتحر بجانبها روميو . والصورة من مناظر رواية « روميو وجولييت » وقد عرضت على الشاشة البيضاء وقام بتمثيل دور جولييت الممثلة الشهيرة نورما شيرر وبدور روميو « ليزلي هوأرد »

الحب والموت

لعل الحب والموت يجتمعان فى أن كلا منهما لا يعرف كنهه ، وأنهما سر من أسرار الكون ، وإذا حاول أحد أن يعرّف الموت ، فغاية ما يستطيعه أن يعرّفه بأعراضه إن كانت له أعراض ، أو بأسبابه إن كانت له على الدوام أسباب . وكذلك الحب ، فلم يدرك أحد سره وحقيقة دوافعه التى تجرد العاشق من شعوره بشخصيته ، وتهوّن عليه فى سبيل هواه كل شىء حتى الموت ، بل قد يستعذب الموت ويطلبه ، أملا فى النجاة ، أو رغبة فى أن يجمع الله بينه وبين من يحب فى عالم الارواح ، إذا كان قد كتب عليه ألا يهنأ بهذه السعادة فى عالم الاجسام .

وقد عرف بعضهم الحب بأنه مرض وسواسى يشبه الماليخوليا ، يجلبه المرء الى نفسه بتسليط فكره على استحسان بعض الصور . وعرفه بعضهم بأنه طمع يتولد فى القلب ، ويتحرك وينمو ، ثم يتربى ، وتجتمع اليه الانانية والحرص . وكلما قوى ازداد صاحبه فى الاهتياج واللجاج والتمادى فى الطمع حتى يؤدى به إلى الغم والقلق ، فيكون احتراق الدم عند ذلك ، باستحالته إلى السوداء ، ومن غلبته السوداء فسد فكره ، ومع فساد الفكر يكون زوال العقل ورجاء ما لا يكون ، وتمنى مالا يقع ، والهيام فى وادى الخيال والاحلام

واذا أصاب العاشق اليأس فقد يقتل نفسه ، أو يموت غماً . وقد يرى محبوبه فجأة أو بعد غياب طويل فيتأثر ويموت فرحاً ، أو يشهق شهقة تصعد فيها روحه . أو يبلغه أنه قد مات ، فيصعق بنعيه ويموت حزناً . أو يهجره المحبوب ، فيصيبه من الآلام النفسية ما يضعف جسمه ، ويميته بأوهى الأمراض . بل قد يمتزج

العاشقان امتزاجاً روحياً ، فيصبحان شيئاً واحداً إذا شطر النصف مات النصف الآخر ، كما قال العباس بن الأحنف :

خلط الله بروحى روحها	فهما فى جسدى شىء أحد
بهما يحيا إذا ما اصطحبا	فاذا ما افترقا مات الجسد

ذكروا أن فتاة عربية هويت شاباً ، فكانت تبذل له الاموال وهامت به هياماً شديداً ، حتى لم تستطع فراقه . فكلفت مصوراً رسم صورته ، ففعل ، فجعلت تجلس الى الصورة كلما غاب عنها الشاب ، وتحادثها وتأنس بها . ثم مات الشاب ففجعت بموته ، ورجعت إلى الصورة ، فمازالت تقبلها وتبكى إلى أن أمست فباتت إلى جانبها ، فلما كان الصباح دخلوا عليها فوجدوها ميتة ويدها ممدودة على الجدار ، وقد كتبت عليه :

ياموت دونك روحى بعد سيدها	خذها اليك فقد أودت بما فيها
أسلمت روحي للرحمن مسلمة	ومت موت حبيب كان يعصيها
لعلها فى جنان الخلد يجمعها	يوم الحساب ويوم البعث باريها

وقد روى فيلسوف الأندلس على بن حزم أن جارية كانت لبعض الرؤساء ، فعزف عنها لشىء بلغه فى جهتها لم يكن يوجب السخط ، فباعها ، فجزعت لذلك جزعاً شديداً ، وما فارقها الأسف والنحول ، ولا بان عن عينيها الدمع حتى ماتت بعد فراقها له ببضعة أشهر . قال : وقد أخبرتنى عنها امرأة أثق بها أنها لقيتها وقد صارت كالخيال نحولا ورقة ، فقالت لها : « أحسب هذا الذى بك من محبتك لفلان » . فتنفست الصعداء ، وقالت : « والله لا نسيته أبدا ، وإن كان جفانى بلا سبب » . وما عاشت بعد هذا القول إلا يسيرا

قال : « وأنا أخبرك عن أبى بكر أخى رحمه الله ، وكان متزوجا بعاتكة بنت قند صاحب الثغر الأعلى أيام المنصور أبى عامر ، وكانت التى لا مرمى وراءها فى جمالها وكريم خلالها ، ولا تأتى الدنيا بمثلها فى فضائلها ، وكان الزوجان فى حد الصبا وتمكن سلطانه ، تغضب كلاً منهما الكلمة التى لا قدر لها ، فكانا لم

يزالا فى تغاضب وتعاتب مدة ثمانية أعوام . وكانت قد شفها حبه ، وأضناها الوجد فيه ، حتى توفى أخى وهو ابن اثنين وعشرين عاما ، فما انفكت منذ توفى عن الحزن العظيم ، الى ان ماتت بعده بعام فى اليوم الذى مات فيه . ولقد أخبرتنى عنها أمها وجميع جواريها انها كانت تقول بعده : « ما يقوى صبرى ، ويمسك رمقى فى الدنيا ساعة واحدة بعد وفاته إلا تيقنى ألا يضمه وامرأة مضجع أبداً ، فقد أمنت هذا الذى ما كنت أتخوف غيره ، وأعظم آمالى اليوم اللحاق به »

وطلب المتوكل مؤدباً لولده ، فذكروا له الجاحظ ، فلما دخل عليه استقبح صورته ، وأمر له بعطاء وصرفه . فلما خرج لقى فى طريقه محمد بن اسحق بن ابراهيم الموصلى ، وكان مسافراً الى مدينة السلام ، فدعاه إلى الانحدار معه فى « حراقته » ، وكانت دجلة فى غاية الزيادة والمد ، فدعا محمد بالغداء ، ثم أمر بالنبيذ والغناء ، ومد الستارة بينهما وبين جواريه ، فغنت جارية هذين البيتين :

كل يوم قطيعة وعتاب ينقضى دهرنا ونحن غضاب
ليت شعرى أنا خصصت بهذا دون ذا الخلق أم كذا الأحباب

ثم سكتت ، فأمر الطنبور ، فغنت :

وارحمة للعاشقينا ما إن أرى لهمو معينا
كم يعذلون ويهجرو ن ويبعدون فيصبرونا
وتراهمو مما بهم بين البرية خاضعينا
يتعذبون ويظهرو ن تجلداً للعاشقينا

فقالت لها العوادة : يا فاجرة ، ماذا يصنعون ؟

قالت : يصنعون هكذا . . قال الجاحظ : «وضربت بيديها فى الستارة فهتكتها ، وبدرت علينا كالقمر ، ثم ألقت بنفسها فى الماء . وكان على رأس محمد بن اسحق غلام رومى الجنس يضاهيها حسناً وجمالا ، وبيده مذبة ، فلما رأى ما صنعت الجارية ، ألقى المذبة من يده ، وهرع إلى الموضع الذى طرحت نفسها فيه قائلا :

لا خير بعدك فى البقا والموت ستر العاشقينا

وألقى بنفسه فى إثرها ، فأدار الملاح « الحراقة » ، فاذا بهما يطفوان متعانقين ، ثم غاصا ، فلم ير أحد منهما ، فاستعظم محمد ذلك وهاله الأمر ، وقال : يا عمرو ، لتحدثنى حديثاً تسلينى به عن فعل هذين ، وإلا ألحقتك بهما ، فحضرنى حديث يزيد بن عبد الملك ، وقد قعد للمظالم ، فدخل عليه فتى ، فقال له : « إن رأى أمير المؤمنين تخرج جاريته فلانة لتغنى ثلاثة أصوات »

فاغتاظ يزيد وقال له : « ما الذى حملك على هذا ؟ » ، قال : « الثقة بحلمك والاتكال على عفوك » ، فأذن له ، ثم أمر بحضور الجارية ، فقال لها الفتى غنى :

أفاطم مهلا بعض هذا التدلل وان كنت قد أزمعت هجرى فأجملى

فغنت ، فقال يزيد : قل الثانى ، فقال لها غنى :

تألق البرق نجديا فقلت له يا برق انى بروحى عنك مشغول

فغنته الجارية ، فقال يزيد : قل الثالث ، فقال : « تأمر لى برطل من شراب » فأمر له به ، فلما شربه أشار اليها بأبيات ، فغنتها ، ثم نهض فوثب على قبة ليزيد ، فرمى بنفسه على دماغه ، فمات ، فقال يزيد : «انا لله وانا اليه راجعون ، أ كان الأحمق يظن انى أخرج اليه جاريتى تغنيه وأردها إلى ملكى . يا غلمان خذوا بيدها ، واحملوها إلى أهله إن كان له أهل ، وإلا فبيعوها وتصدقوا بثمنها عنه ، فانطلقوا بها إلى أهله ، فلما دخلت الدار رأت حفرة فجذبت نفسها من بين أيديهم ، وقالت :

من مات عشقاً فليمت هكذا لا خير فى عشق بلا موت

وألقت نفسها فى الحفرة على دماغها فماتت

***

ومن الطرائف الفكهة التى حكاها بشار بن برد عن الحب والموت ان حماراً له مات ، فرآه ذات ليلة فى المنام ، فقال له بشار : « ويلك مالك مت ؟ ! »

فقال الحمار : « لأنك ركبتنى يوم كذا ، فمررنا بباب الأصبهانى ، فرأيت اتانا جميلة عند بابه ، فعشقتها ، ومت . . !

قال بشار : وأنشدنى حمارى ما يأتى

سيدى شمت أتاناً عند باب الاصبهانى
تيمتنى يوم رحنا بثناياها الحسان
و بغنج ودلال سل جسمى و برانى
ولها خد أسيل مثل خد الشيفرانى
فبها مت ولو عشت إذن طال هوانى

فقال له رجل من القوم : « يا أبا معاذ ، ما الشيفرانى ؟ » قال : « هذا من لغة الحمير ، فاذا لقيتم حماراً فسلوه »

وهذه القصة الفكاهية التى يزعمها بشار بن برد ، و ينظم لها شعراً ينسبه إلى حماره مع ما فيها من تهكم بجنون العشاق ، تعود إلى مايحدث بين الحيوان من غم الفراق كما يحدث بين بنى الانسان . والمعروف ان بعض الحيوان إذا مات قرينها او ماتت قرينته اعتزل الطعام وأسلم نفسه للجوع حتى يموت ، فما بالك بالانسان إذا استولى عليه الحب ، وتحكم فيه الهيام

وقصة روميو وجوليت وقصة مجنون ليلى وغيرها ترجع إلى حقيقة لا شك فيها ، وهى ان الحب يفعل فى النفس وفى الجسم ما يفعله المرض . واذا صح أنه فى كنهه مرض من الأمراض ، فلا عجب ان يموت به العشاق كما يموت الناس بسائر الأمراض ، وأنت ترى رجلا يموت بالسكتة القلبية لحزن ، أو غضب ، او ضعف ، فليس عجيباً ان يموت عاشق لموت معشوقته ، أو لخيانته وهجرانه ، أو لشدة وجده بمن يحب ، فتصبح روحه معلقة فى خيط رفيع لا تقوى فى محنتها على أبسط الأشياء

وليس فى الدنيا أقرب الى الموت من العاشق فى فرحه وأشجانه ، وفى ألمه وسلوانه ، وفى ضعفه وقوته ، وفى جبنه واقدامه ، وفى أنانيته وتضحيته ، وفى استهانته بالحياة وحبه لها ، ما دام يعلم أن فى الموت رضاء محبوبه ، أو قربه منه ، أو فوزه بوصاله . فهو مؤثر له لأنه يراه شفاء لنفسه ، ودواء لقلبه ، ونجاة من جحيم الحياة ، أو فداء لمن يرجو لها حياة هانئة ، وحظاً سعيدا لا شقاء فيه ولا آلام

الخديو إسماعيل

— تقدّم الى سمو الخديو ، وارفع اليه هذه البرقية

— لا أستطيع أن أحمل اليه نبأ مكدراً . . . !

— أنت السر تشريفاتى الخديوى . !

— وأنت المهردار ، حافظ الأختام السنية . . وهذه المهمة أليق بك

— كلا . . لا أستطيع . . لا أستطيع

— وهل تجبن عن أن تقوم بواجبك ؟ !

— نعم . وان من الجبن ما يحمد فى مثل هـذا الموقف ، ولست أجد فى نفسى الآن من الجرأة ما يحملنى على الدخول الى مولاى ، فأكون له رسول شؤم فى هذا الصباح ، فيتطير بى ، ويقترن اسمى عنده بهذا الحادث التاريخى المشئوم . . فلتذهب أنت

— لـكنى . . . !

— إذن فليذهب أحد النظار ، فهم أقدر منا على احتمال هذه الـكارثة ، وأثبت قدماً فى هذا البلاء . !

ودخل رئيس النظار محمد شريف باشا ، فوجد أحمد زكى باشا السر تشريفاتى الخديوى ، وأحمد خيرى باشا حافظ الأختام السنية « المهردار » يتساقيان كؤوس الحيرة والجزع ، وأمامهما برقيـة هبطت من السلطان عبد الحميد بعزل الخديو اسماعيل عن الأريكة المصرية في يونية سنة ١٨٧٩ ، فأسرع اليـه زكى باشا ، وسلمه البرقية فى صمت حزين ، فأدرك شريف باشا ما فيها . وما كاد ينتهى من تلاوتها حتى طواها ، ورأى من واجبه أن يحملها الى مولاه

دخل شريف باشا على الخديو اسماعيل ، فلمح سموه فى وجهه كآبة ، فقال له سموه :

— ما وراءك يا شريف ؟ ! . . .

فسكت رئيس النظار ، وكادت شجاعته تخونه فى تقديم هذه البرقية ، لـكن اسماعيل أدرك ما جاء به ، إذ كان شبح العزل فى ذلك الحين يتراءى له على الدوام . وتناول البرقية ، وقرأها فى رباطة جأش ، وثبات بليغ . ثم بادر وزيره الأكبر قائلا :

— أدع لى الامير توفيق باشا

فقال الوزير : سمعاً يا مولاى وطاعة

وخرج محمد شريف باشا قاصداً قصر الاسماعيلية حيث يقيم الامير محمد توفيق باشا . وغادر اسماعيل باشا مكتبه الى قاعة العرش ينتظر الخديو الجديد ، فجال فيها مرات ، استعاد خاطره فى خلالها كل ما مر به من حياة حافلة بالأبهة والهناء ، وسلطان رائع واسع الأرجاء ، وأيام باسمة كلها مباهج وسعود ، وآمال عظيمة اجتمعت فيها احلام جده محمد على ، وطموح أبيه ابراهيم ، فى مجد مصر واستقلالها استقلالا شاملا ينتظم البلاد العربية من شرقها الى غربها ، ويطوى القطرين من منابع النيل الى مصبه ، ويعيد ما كانت عليـه مصر فى أزهى العصور ، وأقوى عهود الفراعين

ثم أمسك كتاب الخلع مرة اخرى ، ونظر اليه نظرة ، ثم وضعه على كرسى العرش . . ثم انتبـه فأسرع وتناوله ، وأعاده فى جيبه ، وكأنه تذكر ان المخلوع هو صاحب العرش ، وانه هو الذى كان قبـل لحظات يجلس عليـه فى أبهة من الملك تبارى أبهة كسرى ، وهيبة من الجلال تحاكى هيبـة قيصر ، وألوان من جمال النعيم دونها ما سارت به الأساطير ، وأبدعته قرائح الـكاتبين ، وتفننت فى شكاله آلهة الخيال

فلا مجالس الرشـيد ومغانيه الزاهرة ، ولا مفاتن المأمون ومباهجه النادرة ،

ولا متاع المتوكل وقصوره الساحرة ، ولا ذهب المعز وعطاياه المنهمرة ، تحكى فى ترفها ولذاتها ونعمائها مغانى اسماعيل ومفاتن عهده ، وبهجة لياليه ، ومطالع سعده ، و بيض عطاياه وسخى جوده ، وبهاء مجالسه ، وفخامة مواكبه ، ومتاع قصوره ، وما حوته من أثاث ورياش وصور وتماثيل ، وسحر يأخذ بالألباب ، ومشاهد كأنما هى جزء من جنات النعيم

وجلس اسماعيل على كرسى العرش فى انتظار الخديو الجديد ، وحاول فى تلك الساعة الفاصلة بين السعادة والشقاء ، والملك والمنفى ، ان يدفع عن نفسه ما ألم به من خواطر ، و يغالب فى عينيه دمعات ينثرها على عهد زائل ، وملك مضاع ، وحياة حافلة تضاربت الآراء فى نفعها ، وتغايرت الاقوال فى وضعها ، وتباينت الموازين فى تقديرها ، وفيما جلبته لمصر من سعادة أو شقاء

***

و بينما هو فى هذه الحال المؤثرة ، كان الخديو الجديد توفيق باشا يسير بموكبه فى الطريق الى قصر عابدين وعن يساره رئيس النظار شريف باشا ، وقد اخرج من جيبه برقية جاءته من السلطان عبد الحميد يعلنه فيها بتوليته عرش مصر ، فتناول شريف باشا البرقية ، وقرأها وأعادها الى سموه مهنئاً

وصلت المركبة الى القصر ، ونزل الامير توفيق وخلفه رئيس نظاره ، وصعد الى قاعة العرش فى تأثر شديد ، فلما دخل على والده ، نهض اسماعيل من مكانه وتقدم الى نجله الاكبر ، ومد يده قائلا بصوت متهدج :

— انى اسلم على افندينا

ثم قبل وجنتيه ، وتخلى عن العرش ، وانحنى امامه وخرج

خرج اسماعيل ، و بارح القاعة التى طالما ازدانت ببهائه ، وتلألأت بسنائه ، وشهد توفيق باشا غروب نجم أبيه ، ورأى بعينه جنازة مجده ، واحس بما يحمله من آلام هذا العاهل العظيم الذى اهتز الشرق باسمه ، وازدحم الغرب بمآثر كرمه ، فاستولى عليه حزن عميق

وفى السابع والعشرين من يونيــه ، استعد اسماعيل للسفر الى نابولى احدى مدن ايطاليا ، بعد ما حرم عليه السلطان ان يقيم فى مصر ، او فى بلد تابع للدولة العثمانية . وعلم صديقه امبرتو ملك ايطاليــا بنفيه ، فبعث يستضيفه فى قصر « الفافوريتا » بضاحية بورتيتشي احدى ضواحى هذه المدينة

وفى ٣٠ يونيه ركب الخديو اسماعيل ، وعن يساره الخديو توفيق فى موكب حافل الى محطة العاصمة . . ولما دقت ساعة الرحيل ودع الخديو السابق نجله الجديد وداعاً مؤثراً

وقبيل تحرك القطار التفت اليه ، وقال :

— لقد اقتضت ارادة سلطاننا المعظم ان تكون يا أعز الأبناء خديو مصر فأوصيك باخوتك وسائر الآل ، وكنت أود لو استطعت ان اذلل لك بعض المصاعب التى أخشى ان تعانى منها كثيراً . على انى واثق بعزمك وحزمك وكفايتك ، فكن يا بنى أسعد حالا من أبيك

واتجه الى مودعيه من العظماء والكبراء ، وقال :

— انى أغادر مصر ، وأعهد بالخديو الجديد ابنى الى ولائكم واخلاصكم ..

وودعهم ، ثم قام القطار ، وكانما كان هذا الوداع هو الوداع الاخير

* * *

سافر الخديو اسماعيل الى منفاه فى ذلك اليوم التاريخى العظيم ، و ودع نجله وشعبه هذا الوداع المؤثر فى آخر يوم من أيام عهده ، فكان آخر يوم من أيام حياته فى مصر ، بل لعله كان آخر يوم من أيام حياته كلها ، فقد قضى زمناً بالمنفى معز ولا ــ ولا حياة لعاهل بالمنفى ــ وتنكرت له الأيام ، وتجاهله الأصدقاء ، وجحد فضله الأولياء . فبدأ المرض يدب فى جسمه ، وأضعفه الجهاد فى سبيل استرداد عرشه ، وأضناه الهيام بعودته إلى وطنه ، وظل يتنقل من ايطاليا إلى فرنسا ، ومن فرنسا إلى انجلترا ، ومنها إلى برلين ، ساعياً مجاهداً ، فخذلته الآمال ، ودهاه من الخيبة واليأس ما ساق اليه الداء الوبيل

مرض اسماعيل ، وتداعت صحته مما ألم به من حزن وغم وعناء ، فاتجه إلى السلطان راغباً اليه ان يسمح له بالاقامة فى قصره بالأستانة ، عساه يصيب منه سانحة من الرضى ، أو بارقة من الأمل . وأجيبت رغبته ، فارتحل وهو يمنى النفس بانه سيجد فى كنف السلطان ما بخل به الزمان ، ومن بره وعطفه ما يرد اليه بعض هناء أمسه . وما درى انه سينتقل من سجن الى سجن ، ومن منفى واسع الرحاب الى معقل ضيق الجناب ، محاط بالجواسيس

ولو علم اسماعيل ان حياته بأميرجيان خير منها مقامه بضاحية بورتيتشى لما طلب هذه الأمنية ، ولما استبدل القيد بالحرية ، ولما رحل هذا الرحيل المنكود ، ولكن :

يقضى على المرء فى أيام محنته حتى يرى حسناً ما ليس بالحسن

عاش اسماعيل فى تركيا معذب النفس ، مريض الجسد ، منهوك القوى ، فاقد الأمل ، لا يطمئن إلى الحياة ، ولا تطمئن الحياة اليه ، ولا يسالمه الدهر ، ولا يستسلم اليه . ثم طلب من السلطان ان يسافر إلى « امس » للاستشفاء بمياهها المعدنية ، فرفض طلبه ، وخذل رغبته ، فتضاعف داؤه . وجاء حفيده الخديو عباس حلمى الثانى بعد سنوات يزوره فى الأستانة ، فكشف له عما يعانيه من آلام ، وأبان له ان عودته إلى مصر هى أعظم الآمال ، لكن هذه الأمنية صادفت صعاباً لم يستطع ان يذللها عباس ، ولا ان يجد لها عند السلطان شفيعاً . فعاد إلى مصر مكتئباً حزيناً ، مهموماً بما يلاقيه جده من شقاء الداء ، و بلاء المنفى

وفى يناير سنة ١٨٩٥ كان الخديو عباس يشهد بالاوبرا حفلة تمثيلية ، فوصلت اليه برقية تنذر بسوء الحال ، فنهض متألماً محزوناً ، واستدعى أعمامه ، واستشارهم . فاستقر الرأى على ان يسافر الأمير احمد فؤاد (الملك فؤاد الأول) والأمير ابراهيم حلمى ليكونا بجانب والدهما ريثما يعمل عباس لعودة جده إلى مصر . وفى صباح الغد استدعى النظار ، وباحثهم فى الأمر ، فأجمعوا على عدم

الموافقة ، خشية أن تجر عليهم عودة اسماعيل أزمة سياسية . فعارضهم الخديو معارضة شديدة ، ثم اضطر الى الموافقة

و بعد أربعة أيام وردت برقية من « الأميرين » تحوى قرار الأطباء بان المريض العظيم مصاب بالالتهاب الرئوى ، والسرطان المعوى ، ومرض الاستسقاء

ثلاثة أمراض اجتمعت على هذا العاهل فى منفاه . وثلاثة أحزان تحالفت عليه : حزنه على ضياع عرشه ، وحزنه لخيبة سعيه ، وحزنه لفراق وطنه . لكن أحزانه كانت أشد آلاماً على نفسه من أمراضه ، وأعظم تأثيراً فى جسمه من أسقامه . فعاد الخديو عباس يجتمع بالنظار مرة ، وثانية ، وثالثة ويحاول اقناعهم بعودة جده ، فاحتجوا بمعارضة الانجليز ورفض السلطان . وأصدروا فى ٢٣ يناير قراراً بانتهاء البحث فى هذا الأمر

ساء الخديو عباس ان يقف النظار منه ومن جده هذا الموقف ، وبعث بسردار الجيش المصرى الأسبق محمد راتب باشا الى الأستانة ليكرر الرجاء فى عودة اسماعيل رفقاً بصحته ، فلم يظفر بالقبول

وقست الأقدار على الخديو اسماعيل وهو على فراش الموت ، وعبست له فى أيامه الأخيرة بعد ما ابتسمت له عهداً زاهياً ، كان فى متاع الملك بهجة العهود ، وفى سعادة العرش من أسعد السعود

واستسلم الخديو اسماعيل لحظه ، ويئس من رجوعه إلى مصر حتى فى أيام سقمه ، واستوت عنده الحياة والموت ، بل كان الموت أهون على نفسه ، وأشوق إلى قلبه من حياة عزل فيها عن عرشه ، وحرم فيها من وطنه ، وعانى فيها أشد الآلام

وفى ٢٧ يناير تنبه من إغماء طويل أصابه ، فاستدعى نجليه الأميرين أحمد فؤاد ، وابراهيم حلمى ، وقال وهو يطارد عن نفسه الألم :

« إذا مت فادفنونى فى مصر ، مقر جدى وأبى ، وموطن آمالى وأحلامى ، الذى عشت له ، وتمنيت سعادته ، وحرم علىَّ العودة اليه »

ولما انصرف الأميران بعثا بهذه الوصية إلى مصر ، فأعد الخديو قبراً فخماً لجده فى مسجد الرفاعى

مكث المريض العظيم يعانى الآلام الممضة عدة أسابيع . وفى صباح ٢ مارس سنة ١٨٩٥ لفظ النفس الأخير ، فصعدت روحه إلى السماء تشكو عالم الأحياء الذى لا يرحم شيخاً فى شيخوخته ، ولا مريضاً فى مرضه ، ولا محتضراً على فراش موته

مات إسماعيل بعد ما قضى ستة عشر عاماً فى منفاه ، أو على الأصح مات اسماعيل قبل ستة عشر عاماً منذ ودع القاهرة فى ٣٠ يونيه سنة ١٨٧٩ وداعاً مؤثراً . وما كانت هذه السنون الطويلة التى طواها فى المنفى لتحسب فى حياة عاهل كاسماعيل

وإذا كان الموت يحل المشكلات ، ويذلل المصاعب ، فقد حل موت اسماعيل تلك المشكلة الكبرى ، والصعوبة العظمى التى تحطمت عندها جهود الأمراء ، وتخاذلت أمامها مساعى العظماء . فما كاد يذيع نعيه فى البلاد حتى سمح السلطان بنقل جثمانه إلى مصر ، فعاد فى موكب حافل ، ليس أشد إيلاماً من موكب خروجه من وطنه ـ هذا الخروج الذى طوى آخر صفحة من حكمه ، كما طوى الموت آخر صفحة من حياته فى هذه الدنيا

حلم مده الكرى لك مدا   وسدى ترتجى لحلمك ردا
وحياة ماغادرت لك فى الأحـــياء قبلا ، ولم تذر لك بعدا
لم ير النـاس مثل أيام نعما   ك زماناً ولا كبؤسك عهدا
هكذا من قضى حنيناً وشوقاً   وأنينـاً مع الظلام وسهدا
شاكياً للبنين والأمر والصحـــة والجاه والشبيبة فقـدا
عد إلى مصرك الوفية وانزل   فى ثراها وانزل من المهد لحدا *

* الأبيات من مرثية شوقى بك للخديو اسماعيل

الخديو محمد توفيق

وبكت سيدات القصر مما يتوقعنه من الخطر على حياة الخديو توفيق فى ثورة العرابيين ، وتقدم الضابط ابراهيم أدهم أحد رجال الحرس الى سموه ، وقال :

ـــ دعنى يا مولاى للتضحيـة بنفسى فداء لك ، وأذن لى فى أن أغتال عرابى باشا

ـــ فقال الخديو : « لا . . لا أرضى أن يسفك أحد دمه من أجلى . وليساعدنى الله على تهدئة الحال »

وبهذا الجواب أجاب الخديو توفيق ايضاً رؤساء القبائل العربية الذين عرضوا أنفسهم فى لهيب الثورة لتكون ضحية لسموه ، وفدىً له من غدر العرابيين

وكان أحمد عرابى باشا فى ذلك الحين قد عزل من نظارة الحربية بسقوط نظارة محمود سامى باشا البارودى . وأشيع أن العرابيين يريدون الاعتداء على حياة الخديو إذا لم يعد عرابى باشا الى منصبه ، وهددوا كبار العلماء وأعيـان القاهرة بالاعتداء عليهم إذا لم ينضموا اليهم ، ويطالبوا أمير البلاد باعادة عرابى إلى منصبه ، فاستأذنوا سموه ، ومثلوا بين يديه يرجونه أن يجيب العرابيين إلى هذا المطلب ، إنقاذاً للموقف ، وصارحوه بأن هناك شراً مخبوءاً ، وأنهم يرون خطراً يهدد الجميع ، وقالوا ان عرابى باشا هددهم بالقتل اذا لم يحققوا له هذا الرجاء

فقال الخديو : لا . وليفعل عرابى ما يريد . . !

فقال العلماء والأعيان :

ـــ اذا كان أفندينا مستعداً لتضحية حياته ، أو عنده من رجاله من يحميه ، فاننا لسنا كذلك . ووراءنا أطفال صغار

ثم أخبروا سموه أن أوامر عرابى صدرت لبعض رجال الحرس بمنعه من الخروج للنزهة اليومية ، وباطلاق الرصاص عليه اذا هو حاول الخروج بالقوة ، فأذعن الخديو ، وأصدر أمراً باعادة أحمد عرابى الى منصبه

* * *

نجا الخديو من هذا الموت الذى كان يلاحقه فى أثناء الثورة العرابية حتى اضطر الى الرحيل الى الاسكندرية ليكون بمنجاة مما يدبر له فى القاهرة . لكنه كان مؤمناً قوى الايمان ، مخلصاً لوطنه ، على الرغم من سوء الحال واستعانته بالأجانب . ولذلك لما اشتد الأمر ، وادلهم الخطب ، عرض عليه الانجليز أن يلجأ الى احدى سفنهم الحربية ، فرفض رفضاً باتاً ، وقال :

— ان واجبى يقضى علىَّ ألا أترك أمتى وقت الخطر

وانتهت الثورة العرابية ، وأراد الله النجاة للأمير من موت محقق كما قال بعض معاصريه . وقدر لسموه أن يلفظ أنفاسه الأخيرة على فراشه

* * *

فى يناير سنة ١٨٩٢ شعر الخديو محمد توفيق ببرد بسيط ، لم يعن به ، ولم يقعده عن أداء واجبه ، وكان مطمئناً الى حياته ، هانئاً بابتسام أيامه بعد فشل الثورة ، راضياً عن سياسته التى كان يعتقد أنها أحكم السياسات بعد الانقلاب التاريخى . وكان يدافع عن هذه السياسة ضد ما يرميها به المنتقدون من الضعف والاستسلام ، خصوصاً بعد نزوله على رأى الانجليز فى اخلاء السودان اجتناباً لأخطار الثورة التى قامت فى الجنوب . وقد قابله وقتئذ مكاتب التيمس ، فشرح سموه له سياسته ، فقال :

« انى لم أفكر فى منصب الخديوية ، وان أحسن أيامى تلك الأيام التى قضيتها بعيداً عن العرش ، وانى لم أقبله الا قياماً بالواجب نحو أبى ووطنى مسترشداً بنصائح المراقبة الثنائية ، ونصائح انجلترا ، وان أمامى واحدة من ثلاث خطط للحكم :

« إما اتباع هذه النصائح ظاهراً ، والعمل لمحاربتها فى الخفاء
« و إما اطاعتها ، اطاعة عمياء . . !
« و إما أن أناقش النصائح بكل صراحة ، وأبدى رأيى فيها ، فاذا قبل كان بها ، و إلا فأنا مضطر لقبولها
« وقد اتبعت فى الحكم الطريقة الأخيرة ، فاعتبرت ضعيفاً ، فهل كان يمكننى أن أقاوم الى النهاية »

و بقى الخديو توفيق على هذه السياسة حتى وافاه الأجل المحتوم . وكانت اصابته بالبرد مقدمة لنزول هذا الأجل ، فلما أهملها لبساطتها تحولت الى نزلة وافدة حادة ، وثار الداء بجسمه ثورة أزعجت طبيبه الخاص الدكتور عيسى باشا حمدى . وكان أكبر طبيب مصرى فى ذلك الحين

استخدم الدكتور كل ما أوتيه من مواهب الطب ، ووسائل العلاج لانقاذ الخديو من مرضه ، لكن المرض كان يتحداه ، و يهدم له كل يوم ما بناه ، و يصيب مقدرته بالعجز ، ومهارته بالفشل ، فاستعان بثانى أطباء العصر الدكتور سالم سالم باشا . وقد اشتهر بدقته فى وصف الدواء

تعاون الطبيبان المصريان فى مكافحة الداء الو بيل ، واستلهما آلهة الطب فى جميع العصور ، عساهما يجدان فيما وصفوه لهذا المرض ، وما جر بوه فى علاجه ما يفتح أمامهما باب الأمل فى شفائه . و بذلا أقصى المجهود فى المحافظة والعناية ، لكن قوة الداء كانت أقوى من قوتيهما ، وهجوم البلاء أشد من دفاعهما . وكلما زادا فى العلاج جهداً ، زاد المريض عن الصحة بعداً ، وكلما غالبا القدر ، تفاقمت جنود الخطر

وكان يوم ٦ يناير ، فاشتد الهول ، وعانى الأمير من الأرق والالم وضعف التنفس ما ضاق فيه بالدنيا ومن فيها ، فأعطيت له حقنة مورفين . واستمر فى تلك الآلام الفاتكة يومين ، حتى استسلم الطبيبان للقدر ، وأقرا بالعجز . وذاع وقتئذ أنهما أخطأا العلاج ، ولم يصيبا أصح الدواء ، فقامت الحكومة وقعدت ،

واشرأبت أعناق الشعب ، وعجب الناس كيف يقع من هذين الطبيبين العظيمين خطأ ، وزاد من عجبهما أن يقع هذا الخطأ فى جسم أمير البلاد

واستدعى رئيس النظار مصطفى باشا فهمى الدكتورين هيس، وكومانوس ، ليكشفا عن الأمير ، ويكتبا تقريراً بحاله . فذهب الطبيبان الأجنبيان الى قصر الخديو توفيق بحلوان ، فوجدا حالته سيئة ، وقد أشرف على الخطر ، واكتشفا رشحاً فى الرئة اليسرى ، ولم يكن المريض العظيم يستطيع فى هذه الحال ان يبصر شيئاً لتسمم الدم ، وتبين لها انه أصيب من النزلة الوافدة بالتهاب رئوى حاد ، ثم بتعفن وريدى لا يد للطبيبين المصريين فيه ، فوصفا العلاج ، وكتبا التقرير ، وأسلما الأمر للقدر ، وهما يائسان من الشفاء

* * *

طلع فجر السابع من يناير سنة ١٨٩٢ على ساكن قصر حلوان كأشد ما يكون هولا ، واقترن طلوع شمسه بقدوم الموت ينساب فى أشعتها الى الأمير فى سريره ، وبقى مدة يحاول أن يرتفع به من عالم الفناء الى عالم السماء ، ويفر به من بلاء تلو بلاء :

بلاء فى الشباب بعزل والده وشهوده جنازة مجده ، وبلاء فى الحكم بمعاناة ثورة هائلة كادت تقضى على عرشه ، وبلاء فى الجسم بنشوب مرض فاتك أليم

وفي الخامسة بعد ظهر ذلك اليوم خفت روحه إلى بارئها ، فخفف عنه ما يشعر به من ضيق وآلام . واجتمع مجلس النظار بقصر الفقيد ، وهنا نترك لسعادة احمد شفيق باشا أحد معاصريه ان يحدثنا عما شاهده ، قال :

« التأم مجلس النظار فى الحال بحلوان، وحضر الاجتماع سير بارنج ، ولم يتقرر فى ذلك الاجتماع اخبار الأستانة رسمياً بالنبأ المشئوم . ولكن أرسلت البرقيات إلى السلطان من جهات أخرى غير رسمية حتى يمكن اتخاذ التدابير اللازمة

« عاد مجلس النظار إلى الاجتماع صباح يوم ٨ يناير بعابدين ، وحضر الاجتماع جرانفيل باشا السردار ، وكتشنر باشا مدير الضبط والربط ، فتقرر ان يكون تشييع



الخديوى اسماعيل باشا فى أيامه الاخيرة



جنازة الخديو محمد توفيق وفى أعلى صورته



آخر صورة للسلطان حسين كامل



نعش عاهل مصر العظيم الملك فؤاد الاول
خارجا من قصر القبة بالقاهرة . وفى أعلى صورته

الجنازة بالملابس الرسمية ،وان تحمل جثة الفقيد من حلوان الى عابدين فى القاهر ، وان يبدأ مشهد الموكب فى الساعة الثانية ، و بعثت الحكومة بالخبر رسمياً الى الباب العالى ، وأبلغ سعادة تيجران باشا ناظر الخارجية الى القناصل وقوع المصاب وأطلقت مائة مدفع من القلعة اعلاناً للحداد العام »

تلك هي مأساة الخديو توفيق ، ولقد اشتهر بدماثة الخلق ، وسلامة الطوية ، وكان مسلماً قوى الاسلام ، محسناً واسع الاحسان

ذكروا انه كان فى أثناء تنزهه على شاطىء البحر يستدعى بعض الصيادين، ويتحدث معهم فى شئون الصيد ويسألهم عما أصابوا فى يومهم ، فاذا وجد انهم لم يصيبوا شيئاً يكفى قوتهم وقوت أولادهم ، نفح كلا منهم جنيهين من دون ان يعرفهم نفسه ، فكانوا يدعون له قائلين :

— ربنا يحنن عليك يا افندى

وعلم يوماً ان محمد طاهر بك المترجم الانجليزى بالقصر لا يؤدى فرائض الدين ، فاستدعاه ، وقال له :

— انت عامل انجليزى ، لا تصوم ولا تصلى ، فانى لم أشهدك فى صلاة الجمعة ، فأنصحك ان تقوم بشعائر دينك يفتح الله عليك

سمع طاهر بك هذا القول ، فاستحيي من ريائه ، وسارع الى اقامة الصلاة بين المصلين ، وفى الجمعة التالية شاهده الخديو بالمسجد بين حاشيته ، فدعاه لمقابلته بالقصر . فلما مثل بين يديه قربه من عطفه ، وألف قلبه لربه ، ومنحه بيده منحة طيبة ، ثم ابتسم الخديو ، وقال :

— أرأيت يا طاهر بك كيف يفتح الله على من يقيم شعائر الدين

فدعا طاهر بك لمولاه ، وانصرف مغموراً برضاه وبره

السُّلطان حُسين كامل

— الى الوراء .. الى الوراء . . !

فلم يسمع الشاب للنداء ، وتقدم نحوالسلطان ، فصاح ضابط الحرس السلطانى مرة أخرى :

— الى الوراء .. الى الوراء .. !

فلم يجبه ، وجرى نحو المركبة السلطانية ، وهو يحمل في يده طاقة من الزهر . وكان الضابط يريد بندائه ان يقدم الشاب الطاقة الى التشريفاتى الجالس فى المركبة التالية ، ولم يخطر بباله انه معتد أثيم يخفى بين الازهار مسدساً حشوه خمس رصاصات ، يريد بها اغتيال السلطان

فلما لم يسمع للنداء أسرع الضابط ، وضربه بسيفه على يده ضربة غير جارحة ، فانثنت وانثنى معها المسدس فطاشت الرصاصة ، ولم تصب غير مؤخرة المركبة السلطانية، فهجم الضابط ابراهيم خيرى (ابراهيم خيرى باشا) على الجانى ، وضربه بسيفه ضربة صائبة شجت رأسه ، فصاح السلطان :

— لا تقتله . . لا تقتله . . !

وقبض الحرس على الجانى ، وتناول السلطان المسدس ، فوضعه تحت قدميه بالمركبة وأمر باتمام سير الموكب

حدثت هـذه الحادثة الممقوتة قبل وفاة السلطان حسين بنحو سنتين أى فى سنة ١٩١٥ . وكانت الحكومة البريطانية قد اتفقت مع الحكومة المصرية على اعلان الحماية . وقبل السلطان حسين الاتفاق رغبة منـه فى المحافظة على كيان مصر وحمايتها من الاعتداء فى أثناء الحرب الكبرى . لكن هذا الاتفاق

لم يصادف من بعضهم ارتياحاً . فكانت محاولة الاعتداء التى أقدم عليها الشاب محمد خليل

وقد اختار هذا اليوم الذى خرج فيه السلطان الى « العباسية » لزيارة أحد الاعيان ، فكلأت عناية الله « أبا الفلاح » فلم ينله سوء ، وقدر لعظمته ان يلقى ربه على فراشه ، لا بيد هذا الجانى الأثيم الذى حوكم وأعدم

***

عانى السلطان حسين قبل وفاته بمدة داء عضالا ، فصارع المرض صراعاً عنيفاً ، وكان لسلطان الموت الهزيمة أمام سلطان الحياة عدة مرات . وكانت آية الحياة العظمى ان تتغلب على الموت فى جسمه الضئيل النحيل ، وان تصرع الفناء لتظفر له بطول البقاء ، حتى أصبح روحاً فى هيكل ، وحياة فى عظام ، وقوة تتمثل فى شبح ، تعمل وتجاهد ، وتبحث شئون الدولة ، وتشارك الوزراء فى مهام الأمور

وفى يوم الأحد السابع من اكتوبر سنة ١٩١٧ ـ أى قبل وفاته بيومين ـ نهض عظمته من فراشه ، وصلى صلاة الصبح وارتدى ملابسه بيده ، ومشى على ظهر اليخت « سيار » الذى أقام فيه على شاطىء النيل ، ثم خرج من اليخت وأراد ان يسير على الشاطىء قليلا للرياضة . وكان أطباؤه ملازمين له فى أيامه الأخيرة ، فلما رأوا اعتزامه السير على قدميه أشفقوا ، ورجوه ان يعدل عنه ، وان يركب السيارة ، فعارضهم وتقدم خطوات ، فتقدموا اليه وألحوا عليه فى العدول ، فعاد وهو يقول :

ـــ سأسمع نصيحتكم ، وان كنت أعلم انه ليس فيكم من يستطيع ان يردنى خطوة واحدة أخطوها الى الموت

وجاءت السيارة السلطانية فركبها عظمته وقصد بها قصر عابدين

جلس فى السيارة معتدل الجلسة منتصب الظهر ، يرد تحية رعاياه بنشاط وابتهاج كأن لم يكن به داء . ووصل الى القصر فخرج من السيارة سريع الخطى

نشيط الحركة ، وصعد السلم فى قوة تحف به هيبة السلطان ، وجلال الملك . وجلس على مكتبه بالقصر يصرف شئون الدولة من دون ان يشكو عناء . أو يتململ من إعياء . وكان يوم الاثنين السابق ليوم وفاته ، فاذا كله نشاط ، واذا كله حركة وعمل ، واذا هو كعادته لا يضعف أمام أعباء المرض

وفى صباح الثلاثاء التاسع من اكتوبر ثقلت العلة على السلطان ، فعاد لا يستطيع لها احتمالا . وأقعده القدر عن التغلب على الخطر . وأخذ الأطباء يبذلون جهودهم فى نجاته ، لكن ضعف جسمه أعجزهم عن نجاح كل وسيلة من وسائل الطب . وعلى الرغم من هذا الضعف ، فقد بقيت له قوة نفسه ، وتوقد ذهنه الى آخر لحظة من لحظاته

وقبل وفاته بنحو ساعتين دعا نجله الامير كمال الدين حسين وعظمة السلطانة ملك وكريمتيه ، وأوصاهم ألا يقيموا له مأتماً ، وأن يستبدل بذلك توزيع الخيرات على الفقراء والمساكين ، فقال :

— لا تقيموا لى مأتماً ، ولا تتغالوا فى الجنازة ، وأطعموا الفقراء ، وأحسنوا الى اليتامى والمساكين ، وأقيموا السنة فهى خير عندى من البدع

* * *

ودق جرس التليفون فى منزل رئيس الوزراء حسين رشدى باشا ، فأمسك دولته « المسماع » فاذا بالمتكلم كبير الأمناء يخبره ان عظمة السلطان فى خطر عظيم ، فأسرع رئيس الوزراء الى القصر ، وعلم الوزراء بالنبأ ، فقصدوا منزل رئيسهم ، وانتظروه فيه

وفى الساعة الثانية عشرة فاضت روح السلطان حسين ، ففاضت مصر كلها أسى ولوعة ، واهتزت أرجاؤها بنعيه ، فقد شهد الجميع للفقيد العظيم بما كان له من صفات لا توهب الا لعظماء الرجال . وقد كان قبل توليه العرش مهتما بشئون الزراعة حتى لقب « أبو الفلاح » . وكان على كفاية علمية وسياسية جعلت والده

الخديو اسماعيل يختاره للوزارة ست مرات . وقد رثاه اسماعيل باشا صبرى يوم وفاته فعدد مواهبه وصفاته ، قال :

لهف سارى الدجى ، لقد أفل البد	ر وضل السرى ، وغاب الهادى
لهف راجى القرى ، وحاتم طى	قد خبت ناره بهـــذا الوادى
لهف شاكى الصدى ، أخو النيل قد با	ت بعيد المزار عن كل صادى
من يغيث المظلوم ان بات يشكو	وحسين عدت عليـه العوادى
حبـذا طيف نهضـة قد أرانا	ه عيـاناً ، لم يتفق فى رقاد
فكأنا من عابدين خروجاً	نتهـادى منهـا على ميعاد
لم ير الموت رأيه وتقضى	حلم قد سرى بأقصى البـــلاد

وفى منتصف الساعة الثالثة أصدر مجلس الوزراء هذا النعى الرسمى :

« دهمت مصر مصيبة عظيمة إذ فقدت مليكها المحبوب ، فقـد اختار ذوالعرش والجلال إلى جواره فى دار النعيم المقيم صاحب العظمة السلطانية المغفور له حسين الأول ، ولفظ النفس الأخير من حياته الطيبة ظهر هذا اليوم

« إن الراحل الـكريم بفائق تفانيه فى محبة بلاده ، و بديع إخلاصه للمصلحة العامة ، وفى أثناء المدة الوجيزة التى تبوأ فيها عرش مصر ـ و يا أسفا على قصرها ـ بل فى جميع أدوار حياته قد استحق شكران الوطن

« امتاز رحمه الله بمدارك العقل السامى ، و بعواطف القلب الرحيم ، فكان على الدوام موضع المحبة والتوقير فى نفوس المصريين . بل فى جميع قلوب المواطنين على ضفاف النيل ، فلا غرو ان بكته مصر بكاء من يندب كارثة وطنية . ولا ريب أنه فى جميع أنحاء القطر ، فى بيوت الله ، وفى مساكن الناس ، من أصغر الدور إلى أفخر القصور ، ستبسط أكف الضراعة والابتهال إلى مولى البرايا أن يتغمد برحمته ورضوانه ذلك الذى سيلقبه التاريخ حقاً وعدلا بهذا اللقب (أبو الأمة)

« و إنى أنعى لـكم هذه الفادحة الـكبرى ، وقلبى مفتت من الحزن

حسين رشدى »

الملك فؤاد الأول

— هو يا مولاى برد أصابك بالأمس . . لقد كنت أرجو أن تشفق على صحتك الغالية من هـذا المجهود الذى تجود به كل يوم فى كل شأن من شئون الدولة

— لم أشعر طول السهرة بالتعب ، لـكن انتقالى من قصر عابدين الى قصر القبة بعد منتصف الليل فى هذا البرد القارس ، قد أضرنى . . إن صحتى عادت تتخلف وراء رغبتى القوية فى خدمة الأمة ، ولقد شعرت بذلك منذ سنوات ، وجسمى تنتابه عدة أمراض ، بيد أنى أرى واجبى الأول أن أكون قدوة فى التضحية ، فلأضح بصحتى ، ولأضح بحياتى فى سبيل بلادى . . إنى عشت حياة ليست قصيرة بين متوسط أعمار الناس ، فماذا أرجو منها اذا لم تكن نافعة ، ولقد قلت مرة لأحد الفرنسيين : أما أن أكون ملكا فليس بشىء ، وأما أن أكون نافعاً فهذا كل شىء

فقال الدكتور محمد شاهين باشا الطبيب الخاص لجلالته :

— لـكن أرجو مولاى أن يعتكف أسبوعاً كاملا ، لا يعمل فيه شيئاً

وكان ذلك فى صباح ٣٦ يناير سنة ١٩٣٤ على أثر حفلة ساهرة أقامها جلالة الملك فؤاد فى قصر عابدين لممثلى الدول السياسيين فى مصر ، وامتدت الحفلة الى ما بعد منتصف الليل ، فلم ينم جلالته بهذا القصر فى تلك الليلة ، وفضل الانتقال الى قصر القبة ، فشعر فى الصباح بآلام فى الكلى ، وتعب فى القلب والرئة ، فاستدعى طبيبه الخاص شاهين باشا واعتكف كما طلب . وكان موعد مؤتمر

البريد العالمى الذى سيعقد بالقاهرة هو أول فبراير . فلما اضطر جلالته الى الاعتكاف أناب عنه فى افتتاحه ولى عهده « الأمير فاروق »

انتهت الأيام السبعة ، وأراد الملك أن يعود لجهاده ، فأبى الجسم أن يستجيب لمراده ، وتحالف الضعف والمرض على العاهل العظيم ، ورأى الطبيب من واجبه أن ينصح بزيادة الراحة حرصاً على صحته الغالية ، فاعتكف جلالته أسبوعاً ثانياً ، ثم أسبوعاً ثالثاً ، فرابعاً ، وأجل رحلته إلى الصعيد لوضع الحجر الأساسى لتعلية خزان أسوان إلى الشتاء التالى

وكان يوم ١٥ مارس من تلك السنة ، وهو عيد الاستقلال ، فألغيت التشريفات ، واقتصرت تهنئة المهنئين على تقييد أسمائهم بدفتر التشريفات بقصر عابدين ، فكان لهذه الراحة وللعلاج الذى عولج به فى هذه المدة أثرهما الحسن ، فتقدمت صحته ، ونشطت بنيته ، فانتقل الى الاسكندرية لقضاء فصل الصيف . وهناك تجدد عزمه على السفر الى اليونان إجابة لدعوة أهالى « قولة » الذين أقاموا تمثالا لجده العظيم محمد على باشا الكبير ورجوا جلالته أن يتفضل برفع الستار عنه فوعدهم بذلك فى شهر أغسطس

اغتبط جلالته بهذه الرحلة ، وبما فيها من ذكريات تاريخية مجيدة ، وتمنى أن تتيح له صحته زيارة بعض الأماكن التاريخية الأخرى بتلك البلاد . غير أن المرض ما لبث أن عاد اليه بعد وصوله الى الاسكندرية بقليل ، وأخذ يشتد ، وأخذت صحته تتضاءل ، وازداد ضعف القلب ، واستمر فى الهبوط ، فاستدعى الدكتور برجمان من برلين ، فحضر بالطيارة ، وانضم الى أطباء جلالته ، واختبر حالته ، فقرر أن جلالته أصيب بمرض ذات الرئة

أصبحت اذن أمراض جلالته اربعة : هذا المرض الأخير الذى سببه الضعف والبرد ، ومرض الكلى ، ومرض تضخم الكبد ، ومرض القلب ، وكان مصاباً به منذ سنوات ـ هذا عدا الشيخوخة ، وعدا ما كان يحيط بالمسألة السياسية المصرية من علل ومتاعب ، وما يبذله فى سبيل مصر من جهود وجهاد

لم يكن شك فى ان صحة الجالس على العرش فى هـذه الحال تقلق رجال السياسة ، وفيهم الأنجليز الذين كانوا وقتئذ يتدخلون فى شئون مصر الداخليـة بحكم مركزهم السياسى . ولما كان المندوب السامى متغيباً عن مصر بالاجازة فقـد حضر مستر موريس باترسون بالنيابة عنه للاستشارة فيما يجب عمله بصدد العرش

لـكن الله القدير شاء أن يمن على الملك بشفائه ، وان تدوم رعايته لشئون دولته الى آخر نفس من حياته . وقد تحسنت صحته طول عام ١٩٣٥ واستطاع فى خلال هذا العام أن يؤلف الجبهة الوطنية التى تلاها تأليف الوفد الرسمى للمفاوضة

***

تحسنت صحة الملك طول هذا العام ، واستطاع ان يدير شئون دولته . وكان كما قلنا كثير الجود بمجهوده ، حاتمى البذل براحته فى سبيل أمته . فما جاء آخر شهر ديسمبر من تلك السنة حتى ضعفت صحته ، واشتدت علته . وكان هذا الشهر موافقاً لشهر رمضان من سنة ١٣٥٤ فلم يتمكن جلالته من اقامة حفلات القصر التى اعتاد ان يقيمها فى هذا الشهر المبارك . وقبيل العيد بأربعة أيام أصدر الى شعبه هذه الرسالة :

« الى شعبى المحبوب

« قد كان يسعدنى ان أشاطر شعبى المحبوب أفراحه عن كثب فى يوم العيد المبارك ، لولا ان أطبائى رأوا حرصاً على صحتى التى تتقدم ولله الحمد تقدماً مطرداً ، أن يشيروا علىّ باجتناب ما تقتضيه التشريفات مدى ساعات طويلة من اجهاد قد يؤثر على وافر العافية التى أنعم الله بها علىّ .. ولئن حالت الظروف دون تحقيق ما يخالج نفسى من رغبة ملحة فى مشاهدة شعبى الوفى الأمين ، فانها لا تحول دون ان أعرب له بمناسبة العيد السعيد و بعبارات صادرة من أعماق قلبى عما أكنه له من التمنيات الصادقة بالهناء والرفاهية الدائمة

« والله أسأل أن يمدنا جميعاً بعون وتأييد من عنده حتى يتحقق ما نرجوه للوطن العزيز من مجد وعظمة

فؤاد »

أصدر جلالته هذه الرسالة فى ٢٢ ديسمبر سنة ١٩٣٥ ـ أى قبل وفاته بنحو أربعة أشهر . وكان مرض ذات الرئة قد زال عنه ، ولم يكن يشكو الا الأمراض الثلاثة الأخرى . وقبـــل الوفاة بشهر أصيب بمرض فى الأسنان ، فاضطر الى الاعتكاف فى غرفته الخاصة بعد ما كان يخرج كل يوم الى مكتبه بقصر القبة أو قصر عابدين للنظر فى شئون الدولة

وعلى الرغم من آلامه الشديدة ، فقد طلب من رئيس دولته ورجال القصر أن يعرضوا عليه كل صغيرة وكبيرة ، فكانوا يصدعون بأمره ، ويرون فى همة نفسه وقوة عزمه ما يهون عليه متاعب جسمه . لكن الأطباء ـ أطباء الأجسام لا أطباء الأرواح ـ كانوا مشفقين من هذه الحال التى يسير فيها الملك الى الخطر

وعلم جلالتـه ان ولى عهده بانجلترا قد أزعجته الاخبار التى يقرؤها فى الصحف ، فبعث الى « سموه » يوم الخميس السابق لوفاته بثلاثة أيام تلغرافا مطمئناً أملاه على أحد رجال القصر . ثم أمر صاحب السعادة مراد محسن باشا ان يعد العدة لتمضية يوم الجمعة مع وزرائه فى مزرعة الفاروقية وطلب من أطبائه استحضار الصحف ليقرأها . ثم قال لهم :

ـــ انى اشعر اليوم بتحسن كبير

فهنأه الأطباء ، ورجوا له عمراً طويلا . فقال جلالته :

« حقاً انى لا أريد أن أموت ، واذا كانت حياتى قد انتهت ، فانى ارجو ان يهبنى الله حياة اخرى اخدم بها وطنى »

فى هـذا اليوم الذى ابتسم صباحه عن كل ما يبعث التفاؤل والسرور ، استأذن رئيس الوزراء فى المثول بين يدى المليك ، ثم عرض على جلالته بعض المراسيم ، فراجعها ووضع امضاءه الكريم عليها . وتحدث إلى دولتـه حديثاً لطيفاً ، فيه من بهجة الحياة ، والشعور بالغبطة ، والاطمئنان الى الراحة ما يحيى الأمل فى شفاء مليك البلاد ، وتقدمه الى الصحة خطوات

وذاع هذا التحسن بين أبناء البلاد ، فاهتزت نفوسهم ابتهاجاً ، وابتهلوا الى

الله الرحيم ان يتم نعمة العافية على مليكهم المحبوب .. لكن

وليست فرحة الأوبات إلا لموقوف على ترح الوداع

فقد عادت اليه الصحة فى باكورة ذلك اليوم ، وآبت اليه العافية فى صباحه . ثم كان المساء ، فودعه ما كان يشعر به من غبطة ، وفارقه ما كان يطمئن اليه من راحة ، واعتورته حمى شديدة أذهبت منه كل عزم على السفر فى يوم الجمعة إلى « الفاروقية » . . ثم كان صباح السبت فروعت البلاد بنشرة طبية أمضاها أطباء جلالته وهم بروفسير فرجونى ، وبروفسير دونيه ، ودكتور ريدر ، ودكتور برت داى ، ودكتور هيس ، ودكتور جروسى

وحقاً ان الذين يريدون ان يسجلوا مقدار حب الشعب لمليكه فؤاد ، ومبلغ قلقه لمرضه ، والتفاف قلوبه حول عرشه ، فليسجلوا هذا الشعور القوى الفياض الذى بدا فى روعة والتياع وأحزان وآلام فى هذا اليوم الذى أيقن فيه الشعب ان صحة المريض العظيم فى خطر ، وانه يسير بسلام الى الحياة الأخرى

فى ذلك الصباح المروع الذى تكاثفت فيه الأشجان فى سماء مصر ، دخل أحد كبار رجال القصر على المليك فى فراشه ، فنظر اليه جلالته وابتسم ، وكأنما عرف سبب قدومه قبل أن يقدم اليه رسالة « ولى عهده فاروق » من لندن . فتناول الرسالة بيده . وفى هذه اللحظات التى كان جلالته فيها يعانى سكرات الموت ، نشطت أعصابه ، ففض الرسالة وأخذ يقرؤها فى شوق وتأثر عميق

وبينما كانت شفتاه تتحركان فى همس ، لاحظ الأطباء المحيطون به أن يديه ترتعشان ، وعينيه تذبلان ، ورئتيه تضطربان ، ووجهه يختلج ، فأسرعوا الى اسعافه ببعض الأدوية ، فسقطت الرسالة من يده على الفراش ، فالتفت نحوها واغرورقت عيناه بالدموع . ثم أشار اليها ، فقدمها اليه أحد الأطباء ، فنظر فيها نظرة طويلة أودعها كل ما فى نفسه من أمل وألم ووداع . ثم اغمض جفنيه الكريمين على آخر شىء رآه فى الوجود وهو « خط » نجله العزيز فاروق

وانتابته غيبوبة كانت فيها نهاية تلك الحياة العظيمة الحافلة بجلائل الأعمال

الشّيخ محمد عبده

ـــ هو مرض فى الـكبد . . !

ـــ بل هو سرطان فى المعدة . . !

ـــ كلا ، هو مرض العلماء العاملين ، والزعماء المجاهدين ، وهو العناء الدائم ، والـكفاح المتواصل . وليس له من دواء الا الراحة من التفـكير

والتفت الأستاذ الامام إلى أطبائه ، وهم فى خلافهم يتحادثون ، فقال :

ـــ لا ، بل هو كيد الـكائدين ، ودس الجهلاء الحاسدين . وقد يعثر الأسد بالشظية فتدمى قدمه ، وتثير ألمه ، وتخلف عنده من العلل ، ما يبدو أثره بعد زوال الأمل

فقال السيد رشيد رضا أحد الحاضرين :

ـــ لقد أعطيت نفساً أبية ، وعزيمة قوية ، وما عهدنا فيك ضعفاً

فقال الأستاذ الامام : دعني من نفسى فما أبالى بها ، ومن عزيمتى ، فما كنت يوما مرتخصاً لها ، وما أنا بآسف على الحياة

ولست أبالى أن يقال محمد   أبل أم اكتظت عليه المآتم

ولـكنه دين أردت صلاحه   أحاذر ان تقضى عليه العمائم

وللناس آمال يرجون نيلها   اذا مت ماتت واضمحلت عزائم

فيا رب ان قدرت رجعى قريبة   الى عالم الأرواح وانفض خاتم

فبارك على الاسلام وارزقه مرشداً   رشيداً يضىء النهج والليل قاتم

يماثلنى نطقاً وعلماً وحكمة   ويشبه منى السيف والسيف صارم

ثم قال : « كأنما الشعر لا يأتينى الا فى السجن وفى المرض » وهو يعنى

قصيدته التى نظمها فى سجنه عقب الثورة العرابية ومطلعها :

مجدى بمجد بلادى كنت اطلبه   وشيمة الحر تأبى خفض اهليــه

وسكن الأستاذ الامام ، وأشار الاطباء بالراحة التامة من العمل ، ونصحوه بالسفر إلى أوربا لتغيير البيئة ، وتجديد الهواء

وعاد الى الحديث ، فقال للسيد رشيد :

ــ ينصحونى بالسفر الى أوربا . . عجباً . . ألم يكن خيراً لى ان أسافر إلى الريف لأشتغل ــ كما يقول الخديو ــ مع الفلاحين !

فابتأس تلميذه ، وهوّن عن نفسه ألم الحادث الذى وقع بينه و بين الخديو قبل المرض بقليل ، فأثر فى نفسه . وكان النزاع بين سمو الخديو عباس ، والاستاذ الامام ناشباً فى السنوات الأخيرة . و بدأ بوشاية بُعض الواشين . وحدث ان خلت كسوة من كساوى التشريف العلمية ، بموت أحد كبار العلماء ، فبعث الخديو لشيخ الأزهر السيد على الببلاوى يبلغه أمر سموه شفهياً بمنح هذه الـكسوة الشيخ محمد راشد مفتى المعية ، فلم ينفذ هذا الامر

فلما اجتمع العلماء عند سمو الخديو فى التشريفات ، قال سموه لشيخ الأزهر :

ــ ألم يصلك أمرى باسناد الـكسوة الى الشيخ محمد راشد

فتلعثم شيخ الأزهر ، ونهض بالجواب عنه الشيخ محمد عبده فقال :

ــ ما قرره مجلس ادارة الأزهر انما هو تنفيذ لأمر أفندينا . لأنه هو ما نص عليه القانون المتوج باسم سموكم ، وأما الاوامر الشفوية ، فلا يستطيع المجلس ان يعتمد عليها . فاذا شاء أفندينا ان تكون كساوى التشريف العلمية بمقتضى ارادته الشخصية ، فليصدر بذلك قانوناً آخر ، ينسخ هذا القانون ، أو مادة قانونية ، نصها : كساوى التشريف للعلماء تمنح بأمر منا »

قال الشيخ محمد عبده ذلك بشجاعة يدفعه اليها الحق ، و يعتمد فيها على العدل . لـكن هذا الجواب أغضب الخديو ، فما كاد الشيخ يتمه حتى احمر وجهه ، و وقف ايذاناً للحاضرين بالانصراف

مرت هذه الحادثة ، لكن لم يمر أثرها ، فقد كان لها وقع شديد فى نفس سموه ، وزادت فى توتر العلاقة بينه وبين المفتى ، وكان الوشاة من حساده ، يجاهدون فى محاربته ، ويتعاونون على القضاء عليه . وكان رحمه الله يكافح جيشين ربضا على صدر الأمم الاسلامية عامة ، ومصر خاصة . وهما جيش الضعف وفساد العقائد وجيش الجهلة والحاسدين . فلما وقعت هذه الحادثة وجد هؤلاء الخصوم بعدها مجالا للمكر والفر ، وفرصة للدسائس والوشايات

وكان اللورد كرومر يقدر الاستاذ الامام ، ويعترف بفضله ، ويقول لمحدثيه: « ان هذا الرجل لا يمكن تعويضه » . فسعى خصومه فى النكاية به عنده ، فلفقوا صورة شمسية له مع بعض نساء الافرنج ، وبعثوا بها الى الخديو والى اللورد كرومر وكتبوا أن هذه الصورة تزرى بكرامة المنصب ، وانه تجب إقالته

فقال اللورد : «ان الاستاذ يزورنا فى قصرنا ، وتحضر ليدى كرومر مجالسه ، فهل يصح ان نعد هذا إهانة له أو لنا » ؟!

وتمادى حساد الامام فى باطلهم ، وأمعنوا فى غيهم ، حتى أفسدوا ما بينه وبين أمير البلاد ، فذهب فى ١١ يناير سنة ١٩٠٤ الى القصر حاملا استقالته . ودخل على سموه . فلما سأله عن سبب استقالته ، أجاب قائلا : « اذا كان بقائى فى منصبى يا افندينا يحدث لسموكم متاعب ، فأنا أفضل التخلى عنه ، رغبة فى راحتكم» فانشرح الخديو لهذا الجواب ، ولم يقبل الاستقالة

***

زال التوتر الشديد الذى كان بين الخديو والاستاذ الامام فى ذلك الحين ، وأصيب خصومه بالخذلان ، وتحطمت مكائدهم ، وارتدت اليهم سهامهم ــ ولكن الى حين . وانهار بناؤهم ــ ولكن الى أجل . فان الخديو وان كان قد ارتاح لتقديم المفتى استقالته اليه ، وايثار عطفه ورضاه عليه ، الا انه كان ناقماً على صلته باللورد كرومر ، غير واثق بمشايعة الشيخ لكل ما يريد ، وتنفيذه كل ما يطلب ، فقد عرفه صارماً فى الحق ، فلم يطمئن اليه ، وعاد معه الى خطته الاولى فعاد

أعداؤه الى الكيد له والتشهير به ، ورموه بقبول الرشوة

حدثنى حافظ بك ابراهيم ، قال : « كنت جالساً مع الأستاذ الامام فى بيته بعين شمس . فدار الحديث حول الرشوة التي رماه بها بعض الأفاكين ، فقال : (والله لو كنت ممن يقبلون الرشوة ، لسال هذا الفناء ذهباً)

« وقد صدق رحمه الله ، فهو لم يخلف شيئاً لأهله . وفى يوم مأتمه رأيت رجلا يبكى بكاء مؤثراً ، فأردت أن اخفف عنه ، فقلت له : ان مصابك يا أخى هو مصاب الجميع ، فأجابنى الرجل فى نشيج محزن : « لست أبكى على مصابنا فى « الامام » فقط ، انى ابكى أسى على هؤلاء المساكين الذين كنت أوزع عليهم كل شهر مرتباته من الاوقاف » والى هذا أشرت فى مرثيتى له فقلت :

بكينا على فرد ، وان بكاءنا على أنفس لله منقطعات

تعهدها فضل الامام وحاطها باحسانه ، والدهر غير مؤاتى

ثم قال لى حافظ : « ولم أر كالامام فى قوة خلقه ، وثقته بنفسه . حدث ان جاءه يوما كتاب تهديد بالقتل من مجهول ، فابتسم رحمه الله ابتسامة ظريفة ، ثم دفع الكتاب الى السلة . وذات يوم كنت راكباً معه عربته الى بيته ، فقلت له :

— لو أننا فوجئنا بهذا الذى بعث وعيده ، فماذا يكون موقف الامام ؟

فأجاب بقوله :

— والله يا حافظ ، انى لأهنىء نفسى اذا وجدت فى مصر من يقدر أن يقول فى وجهى « أخطأت » ، فكيف بى اذا وجدت من يريد أن يقتلنى

« وكان من حساده أحد علماء سورية ، وقد اعتاد ان يطعن فى كفايته ، ويشهر بعلمه ودينه لخصومه فى مصر ، فكان الامام يتغاضى عنه . فلما ألف رسالة التوحيد . بعث اليه هذا العالم بكتاب يقول فيه انه قرأ هذه الرسالة فأزالت كل سخيمة فى نفسه ، ودفعته الى الاعتراف بفضله ، فرد عليه الامام بقوله :

— الحمد لله . . حينما أبغضتنى أبغضتنى لله . وحينما أحببتنى أحببتنى فى الله »

* * *

جاهد الاستاذ الامام فى وسط هذا الجيش من الخصوم المتهافتين على نضاله ، الموغلين فى إيذائه ، فلم يعبأ بهم ، واندفع فى طريق الاصلاح يشقه بهمة قوية وعزيمة حديدية ، ونور يمحو ظلام الباطل ، ويهتك حجاب الضلال ، ويسعى فى سبيل الله لا يفرق بين كبير وصغير ، أو بين ملك وامير ، بل كان الكل أمامه سواء . ولم تعوزه يوما الشجاعة فى معارضة ما لا يتفق وتعاليم الدين ، ولم يخذل يوما حقاً هاجمه باطل ، ولا عدلا طارده ظلم ، بل كان ينبرى فى الميدان بقلب مملوء بالايمان ، ونفس مزودة باليقين ، فينصر ما أحله الله ، ويناضل ما حرمه . وكانت هذه الخطة جديرة بان تجعل له المكانة عند حكام البلاد ، لولا السياسة ، وقاتل الله السياسة ، فما دخلت شيئاً الا افسدته

وكانت حادثة استبدال قطعة من اطيان وزارة الاوقاف بقطعة من أطيان الخديو عباس . وكان للامام فيها رأى يخالف رأى سموه ، فحرمه رضاه

وفى هذا الحين أقبل أحد الاعياد ، فذهب الاستاذ الامام الى القصر فيمن ذهب من الكبراء لتهنئة الامير ، فلما كان فى المجلس ، قال الخديو :

— فيه ناس فى البلاد ليسوا راضين عن اعمالنا ، فهؤلاء خير لهم ان يعودوا الى بلادهم ، ليشتغلوا فلاحين

سمع الامام هذه العبارة ، فايقن ان الخديو يعنيه بها ، فخرج من القصر مكلوما ، واعتكف فى بيته مغموما ، ولكنه كان يعمل لوظيفته وللناس ، وهو على فراشه . فاضعف التعب جسمه ، وأنهك الشجو نفسه ، فاستفحل مرضه

وكان شهر يونيه سنة ١٩٠٥ . فتهيأ للسفر الى اوربا طوعا لنصيحة الاطباء ، لكن السفن الدورية كانت قد امتلأت بالمصطافين ، فاضطر الى الانتظار الى ما بعد اليوم الرابع عشر من هذا الشهر

ودنا موعد الدور الثانى ، ودنت حالته من النهاية ، وأشرف على الرحيل من هذه الحياة ، فنصح الاطباء أهله ومريديه ان يحببوا اليه الاقامة بالاسكندرية وان يثنوه عن السفر الى اوربا ، فافلحوا . ونزل بطل الاسلام بمدينة بطل اليونان

طابت الاقامة لمفتي البلاد ، وزعيم الاصلاح الديني والاجتماعي بهذه المدينة ، وانتعش الامل فى شفائه ، وابتهج الناس بتحسن صحته ، وتفاءلت مصر كلها بما ذاع بين ارجائها من انباء سارة ، وابتهلت الى بارئها ان يتم لامامها جميل العافية

لكن هذا الأمل الذى انتعش فى بسمة من الايام ، وهذا الابتهاج الذى بدا فى ساعات معدودات ، وهذا التفاؤل الذى لمع فى النفوس ، لم يلبث ذلك كله طويلا ، فقد تبدد فى الخامس من يوليه حين انتشر نبأ الخطر على صحته

وكان المكلفون بتمريضه يحيطون به فى ليلة ذلك اليوم ، وقد اطمأنوا الى أنه يقضى الليل منذ أيام فى راحة وهدوء ، ولكنه فى هذه الليلة ، استيقظ متضوراً ، فأسرعوا اليه ، فوجدوه حائراً ، يتلوى يميناً و يساراً من تبريح الآلام ، وكان السرطان قد امتد الى فمه ، فضاعف عظيم ألمه ، واستمر فى هذه الحال يعانى الداء العقام ، و يكافح الاوصاب الجسام ، و يستعين عليها بذكر الله . وكان منذ ابتداء مرضه يردد فى عنائه : — الله اكبر

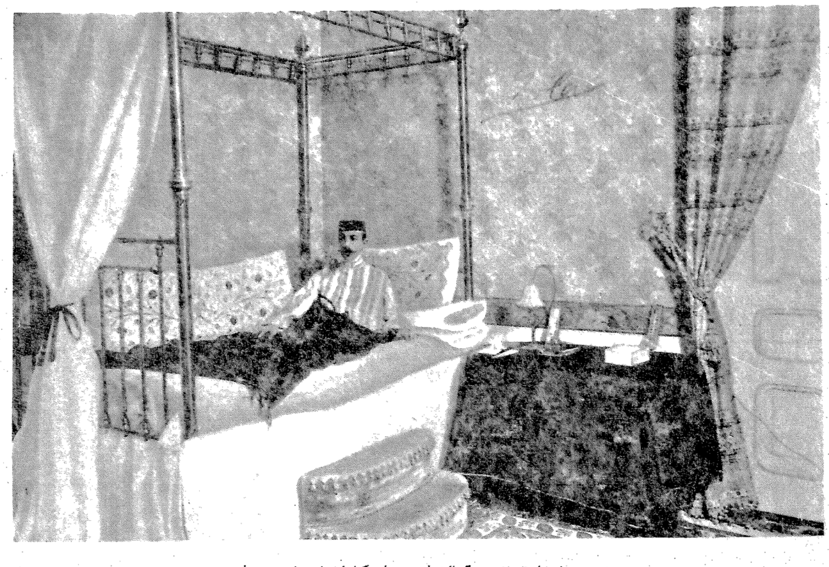
الله أكبر . . كانت هذه التكبيرة سلوته ، ومفتاح صبره ، و بلسم ألمه . . الله أكبر . . كانت هى عماد عزمه فى شجاعته واقدامه ، وآية كلمه فى يقظته ومنامه ، وفى قعوده وقيامه ، لم ينفك عن ذكرها ، ولم يبرح يعيدها ، كلما برح به الداء ، واشتد عليه البلاء

وفى صباح الحادى عشر من يوليه سنة ١٩٠٥ دخلت عليه السيدة زوجته ، فوجدته هادئاً فنادته ، ففتح عينيه قليلا ثم أغمضهما ، وأخذ يحرك شفتيه بالتكبير ، فعادت السيدة فاسمعته جميل أمانيها له ودعاءها بشفائه ، فابتسم لها ، ثم حرك شفتيه بالتكبير . فكان آخر ما حرك به لسانه قبل اصابته . وآخر ما حرك به شفتيه فى سكرات موته . حتى استوفى من الحياة آخر اللحظات ، وصعد ليستوفى جزاءه من نعيم الجنات

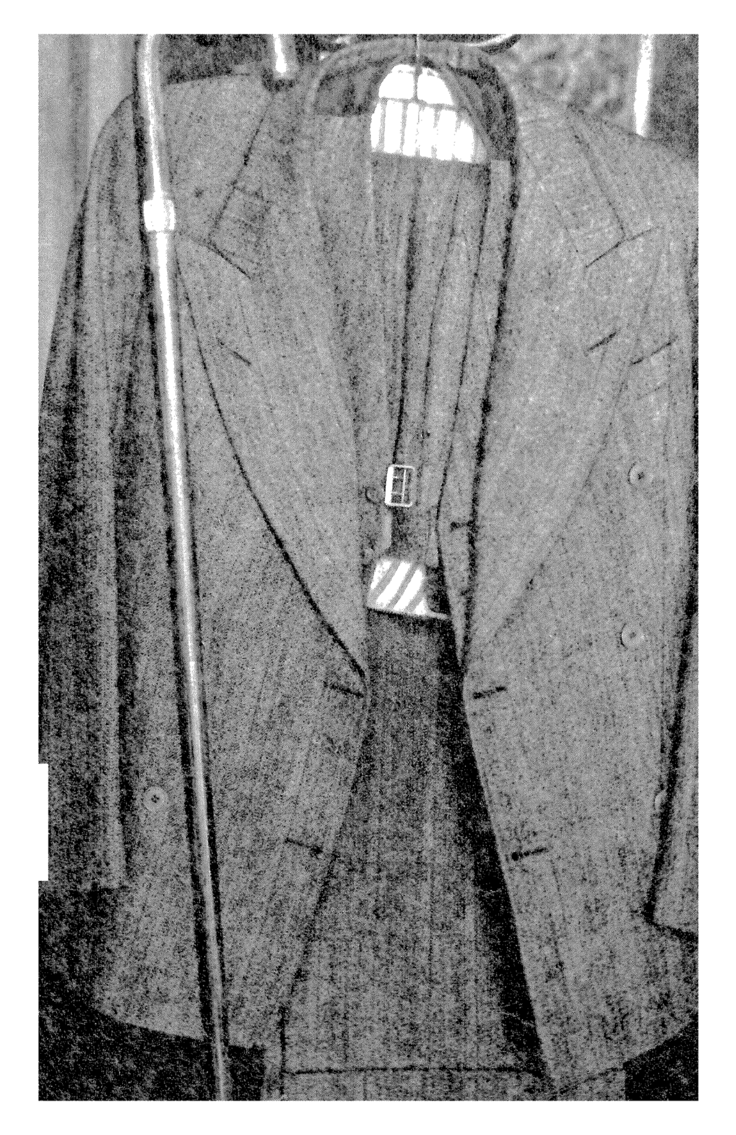


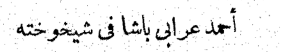
الاستاذ الامام
الشيخ محمد عبده

قبر الاستاذ الامام
الشيخ محمد عبده
بجبانة العفيفى بالقاهرة

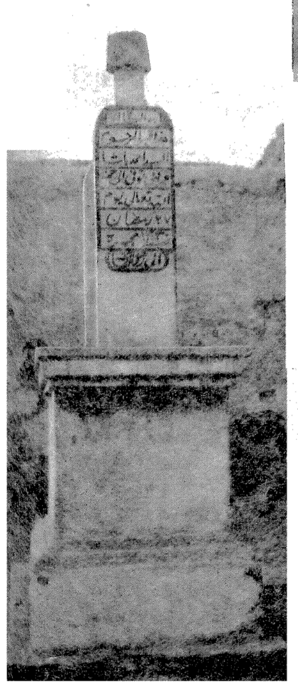


زعيم الوطنية المصرية الاول مصطفى كامل باشا وهو على
فراش الموت . وفى الصفحة المقابلة عصاه واحدى بذلاته





أحمد عرابى باشا فى شيخوخته



قبر المرحوم أحمد عرابى باشا بجبانة
الامام الشافعى بالقاهرة

مصطفى كامل باشا

— عما قريب ، سوف أفارقكم . . !

— إلى أين ؟ . . لقد أجهدت نفسك ، وسموت فوق الطاقة فى الجهاد ، وأنهكت جسمك فى السفر فى سبيل مصر مراراً ، فاسترح قليلا فى بلدك

— سوف يستريح جسمى الراحة الكبرى . وكنت أود لو استراحت روحى ونفسى قبل الفراق

— ماذا تعنى يا باشا ؟

— انى لن أعيش طويلا . . وسأموت قريباً . . فلا تضيعوا الوقت ، وأسرعوا فى العمل . . !

— سلمت يا مصطفى . . لا تتشاءم ، ودع عنك هذا الوهم ، وسيمن الله عليك بالشفاء التام

— ليس تشاؤماً ، وليس وهماً ، إنى لأشعر فى أعماق نفسى بقرب نهايتى ، و إن امرأ مثلى يطالع غده ليس امرأ عادياً . . . ! !

فارتاع أعضاء الجمعية العمومية للحزب الوطنى من هذا الحديث الذى دار بين مصطفى كامل و بين كبار رجال الحزب على مسمع منهم فى اجتماعهم فى السابع والعشرين من شهر ديسمبر سنة ١٩٠٧ وجمدت أبصارهم فى ذهول

وفى أثناء هذه اللحظات التفت إلى شقيقه على فهمى كامل ، وقال : « تشجع ، و إذا مت ، فليحمل اللواء هذا الرجل النبيل » ، وأشار إلى محمد فريد بك

وكان «مصطفى» فى ذلك الحين مريضاً بالقلب والكلى ، وقد أخذت صحته

تضعف ، وجسمه يذوب ، لـكنه بقى مثابراً على نشاطه ، ناهضاً بأعباء جهاده ، قوياً بروحه ، شجاعاً بنفسه التى لا تعرف راحة فى ذل ، ولا هناء فى استعباد

وقد ازداد ضعفه بعد خطابه الحماسى البليغ الذى ألقاه فى ٢٢ أكتوبر بمسرح زيزينيا بالاسكندرية قبل وفاته بنحو أربعة أشهر ، واستمر أربع ساعات فى إلقائه ، فبذل من صحته ومجهوده ما دفع أصدقاءه إلى الاشفاق عليه ، والخوف من أن يكون خطابه هو خطاب الوداع . وقد ضمنه آماله ، ومبادئه ، وتفنيده القوى لحجج خصومه ، ونداءه الخالد للمصريين ، وحضهم على العمل الدائم ، حتى تستعيد مصر مجدها القديم ، وتصبح كما كانت سيدة الأمم

قال : « . . دهش الذين كانوا لا يرون فينا إلا أمواتاً تتحرك ، كما بهت أعداء الوطنية المصرية من هذه الروح الجديدة التى دبت فى الأمة ، وقالوا عجباً أيحيا هذا الشعب ؟ . أتنهض مصر بنفسها ؟ . أتعمل للاستقلال وحدها ؟ أتقدر على تحقيق مطالبها بمحض إرادتها ؟ . أتقاتل اليأس والقنوط ، وتتغلب على الحوادث والـكوارث ؟

« أجل يا أعداء مصر ، وألف مرة أجل . إن مصر بالغة آمالها ، ومحققة أمانيها بارادتها وهمتها . إننا وجهنا قلوبنا ونفوسنا وقوانا وأعمارنا إلى أشرف غاية اتجهت اليها الأمم فى ماضى الأيام وحاضرها ، وأعلى مطلب ترمى اليه فى مستقبلها ، فلا الدسائس تخيفنا ، ولا التهديدات تقفنا فى طريقنا ، ولا الشتائم تؤثر فينا ، ولا الخيانات تزعجنا ، ولا الموت نفسه يحول بيننا وبين هذه الغاية التى تصغر بجانبها كل غاية

« نعم ، لو تخطفنا الموت من هذه الدار واحداً واحداً ، لـكانت آخر كلماتنا لمن بعدنا : كونوا أسعد حظاً منا ، وليبارك الله فيكم ، ويجعل الفوز على أيديكم ، ويخرج من الجماهير المئات والألوف بدل الآحاد للمطالبة بالحق الوطنى ، والحرية الأهلية والاستقلال المقدس

« بلادى بلادى . لك حبى وفؤادى . لك حياتى ووجودى . لك دمى ونفسى . لك عقلى ولسانى . لك لبى وجنانى . فأنت أنت الحياة ، ولا حياة إلا بك يا مصر »

***

ألقى مصطفى كامل هذا الخطاب فى أكتوبر سنة ١٩٠٧ ، وتنبأ بقرب وفاته فى اجتماع الجمعية العمومية للحزب الوطنى فى ديسمبر ، وكان قبل ذلك قد بعث فى سبتمبر من ذاك العام إلى شقيقه على فهمى كامل خطاباً من باريس يشكو فيه ضعف جسمه ، واشتداد آلام « الكلى » عليه ، ويتنبأ بأن حياته قصيرة ، وأجله قريب

وعلى الرغم من اشتداد آلامه ، ونحول جسمه ، كان لا ينفك عن العمل ليل نهار بنفس فتية ، وروح قوية ، لا يقعد به الضعف عن الاقدام ، ولا يثنيه المرض عن الاستبسال . وقد دفعه كفاحه ضد خصوم وطنه ، الى كفاحه ضد راحة نفسه ، وتغلبه على ضعف جسمه

وإذا كانت النفوس كباراً تعبت فى مرادها الأجسام

لم يرفق « مصطفى » بجسمه النحيل الضئيل ، حتى أصبح روحاً فى هيكل عظمى ، أو أصبح كله روحاً عجيبة تتكلم وتعمل وتسير بلا جسم . . ! واذا كان نهوضه الوطنى فى ذلك الزمان نادراً ، ونبوغه السياسى بين الشباب نادراً ، ونشاطه الفتىّ بين المجاهدين نادراً ، وتفانيه الكلى فى حب وطنه نادراً ، فلا عجب اذا أعطى روحاً فريدة نادرة ، تفرض ارادتها على الزمن ، وتتغلب على المصاعب ، وتعيش سليمة قوية سواء بقى الجسم أم تداعى وانمحى

نازل « مصطفى » المرض عدة مرات ، فكانت له الغلبة ، وفاز بالنصر ، وتماثل للشفاء ، فانتعشت آمال أصدقائه ومريديه . لكنه عاد فى أوائل يناير سنة ١٩٠٨ ، فشعر بتعب فى المعدة إلى جانب مرض الكلى والقلب ، فنصح له الأطباء

بالاعتكاف فى فراشه . واختلفت آراؤهم فى هـذا المرض الجديد ، ورجح بعضهم انه « سل فى الأمعاء »

رأى الزعيم الشاب ان هذا المرض الجديد يخفى وراءه شبح الموت ، وانه بعد أن تغلب على المرضين الآخرين بقوة عزمه ، وعظيم بسالته ، لا يستطيع أن يكافح هذا المرض الفتاك ، الا اذا استسلم للراحة ، واعتكف فى فراشه عملا بنصح الأطباء ، لعله يطيل فى مدة حياته القصيرة أياماً يخدم بها وطنه ، ويزيد فى صفحات جهاده صفحة أخرى تنفع الجيل القادم

قال لأحد الفرنسيين فى أثناء مرضه : « انى أشعر بأن المرض قد دبّ إلىّ ، ترى هل أعيش حتى أرى أول نجاح لجهودى ، ليحصد الآخرون نتائج جهادى . . لكن ليكن لى وقت كاف للغرس والزرع »

وقبل وفاته بأيام دعا والدته ، فجلست بجواره ، وأخذ يحدثها عن آماله ، ويشكو اليها ما ألم به من أسقام ، فصارت والدته تطمئنه ، وتهون عليه مصابه ، فدمعت عيناه ، ثم أجهش فى البكاء ، فبكت والدته بكاء مراً ، فكف مصطفى عن البكاء ، والتفت الى أمه ، وقال :

« لست أبكى يا أماه على الحياة . كلا ، وانما أبكى على مصر المسكينة ، آه لو عشت عشرين سنة أخرى ، لمت هانىء البال ، مطمئناً على بلادى . انها ستصبح مستقلة . نعم ، وأنا واثق انها ستكون سيدة العالم فى يوم من الايام »

وهنا دخلت شقيقته الصغرى « نفيسة هانم » وشقيقه على فهمى ، فدعاهما للجلوس ، ثم أمسك بيد شقيقته ، وقال :

— كنت أتمنى أن أعيش طويلا ، وأراك عروساً فى منزل زوجك

والتفت الى شقيقه على بك ، وقال :

— ستتعب يا أخى من أجل مصر ، ولكن لا تحزن . . .

* * *

كانت مصر فى ذلك الحين قد علمت باشتداد المرض على زعيمها الأكبر ،

فهلعت قلوبها ، وارتاعت نفوسها ، واتجهت بآمالها الى الله داعية متضرعة أن يبقى لها ابنها البار ، الوفى لحقها ، المدافع عن حريتها ، وهرعت الوفود الى داره تسأل عن صحته

وفى يوم السبت ٨ فبراير ، أى قبل وفاته بيومين زاره سمو الخديو عباس حلمى الثانى ، فنهض له الفقيد من فراشه واستقبله فى ابتهاج ونشاط كأن لم يكن به داء ، وعند توديعه ، قال لسموه :

— لى رجاء يا أفندينا ، وأنا أشعر الآن بقرب الأجل ، ان تعطف على الحزب الوطنى ، فانه أمل مصر ، وقد وصلنا الى نجاح كبير فى مسألة دنشواى ، واخراج اللورد كرومر ، وتغيير وزارة مصطفى فهمى ، وانشاء مجالس المديريات ، وانتصارنا لتركيا فى مسألة طابة »

فطمأنه الخديو ، وتمنى له حياة طويلة

وفى مساء ذلك اليوم نام مصطفى نوماً مريحاً ، وابتسم صباح الأحد عن هدوء واطمئنان وتفاؤل بشفاء الزعيم . وزاره بعض أصدقائه ، وفيهم أمير الشعراء احمد شوقى بك ، فجلس يحادثهم . وانه لكذلك إذ شعر بآلام شديدة ، فاستأذنهم فى الاستلقاء على فراشه ، وأسرع الدكتور صادق رمضان ، فقام باسعافه لتخفيف ما يشعر به ، فقال « مصطفى » لطبيبه :

— هل هناك أمل ؟ . .

فقال الطبيب :

— نعم . . ولا حياة مع اليأس ، ولا يأس مع الحياة

فهز مصطفى رأسه ، وقال :

— بل انى أذوب الآن . . وعما قريب أموت

ثم التفت الى صديقه امير الشعراء ، وقال له مبتسما :

— سوف ترثينى يا شوقى . نعم . أليس كذلك ؟

فسكت شوقى ودمعت عيناه . وفى ذلك يقول بعد وفاة صديقه الزعيم :

ولقد نظرتك والردى بك محدق والداء ملء معالم الجثمان
يبغى و يطغى والطبيب مضلل قنط ، وساعات الرحيل دوانى
ونواظر العواد عنك أمالها دمع تعالج كتمه وتعانى
تملى وتكتب والمشاغل جمة ويداك فى القرطاس ترتجفان
فهششت لى حتى كأنك عائدى وانا الذى هدّ السقام كيانى
و رأيت كيف تموت آساد الشرى وعرفت كيف مصارع الشجعان
و وجدت فى ذاك الخيال عزائماً ما للمنون بدكهن يدان
وجعلت تسألنى الرثاء فهاكه من أدمعى وسرائرى وجنانى

وقام شوقى، وقام سائر الصحب من الاصدقاء والمريدين . وهدأ الزعيم قليلا، وأقبل المساء ، فانتعشت صحته ، ونشطت بنيته وأخذ يسامر أهله و يمازحهم ، و يلعب معهم «الكتشينة» . واستمر فى تلك الليلة يقظاً الى الساعة الحادية عشرة. ثم نام . وفى الساعة الرابعة صباحاً ،استيقظ ، فوجد نفسه غارقا فى بحر من العرق ، فدعا بملابس أخرى فأبدلها بملابسه ، ثم نام نوماً هادئاً ، لم يزعجه فيه ألم

وفى العاشرة من صباح الاثنين ١٠ فبراير سنة ١٩٠٨ ، دخل عليه شقيقه على فهمى ، فسأله عن صحته ، فطمأنه ، وجلس يحادثه فلم يقو مصطفى على الحديث طويلا . ولاحظ أخوه تغيراً فى لونه ، وجموداً فى عينيه ، وشروداً فى فكره ، فملىء رعباً ، وسأله عن ألمه ، فقال :

ـــ لا شىء . . لا تخف . . تشجع يا على ، واستمر فى عملك بحكمة ، ليسهل علينا بلوغ الأمل

وصمت بعد هذه العبارة ، وكاد يغيب عن الوجود ، ثم تنبه قليلا ، وقال :

ـــ مسكينة يا مصر

وأخذ يردد هذه الكلمة ، وكانت آخر كلماته ، واستولى عليه تشنج لم يفق منه ، وصعدت روحه الى عالم الخلد فى منتصف الساعة الخامسة من مساء ذلك اليوم المشئوم

فكانت مأساة . . أى مأساة . . فان مصاب هذا الزعيم الشاب متعدد النواحى، عظيم الأشجان ، فهومصاب الوطن البائس ، مصاب الشباب الناهض ، مصاب النبوغ النادر ، مصاب البسالة الفائقة ، مصاب الحجة الدامغة ، مصاب الاخلاص فى العمل ، والجهاد فى سبيل الحق ، وفى سبيل الحرية والشرف والكرامة

كتب مرة الى صديقه محمد بك فريد من بودابست يقول :

« . . ان لى روحاً هى من نور الحرية الساطعة ، لا تستطيع الحياة فى ظلمات الظلم والاستبداد . . ان روحى تنادى الى يوم الممات ما شا كلها من الارواح الشريفة لتتحد معها على القيام بهذا العمل الشرعى الحق

« وماذا أقول لك وأنت تحس ما لا يستطيع القلم كتابته ، وانت اذا تلوت هذه الاسطر سالت الدموع من عينيك . . ماذا اكتب وانا كلما شاهدت هذه البلاد وشاهدت فيها علم الوطنية عالياً مرفوعاً ازداد لهيب فؤادى ، وتفتت منى الكبد »



أحمد عرابى باشا

انتهت حياة احمد عرابى باشا السياسية ، قبل أن تنتهى حياته الجسمية بنحو ٢٩ سنة ، لكن النهاية الاولى ، كانت بلا ريب هى النهاية الاخيرة لزعيم ثورة وطنية خطيرة كان لها شأن فى الشرق والغرب . فقد قضى السنين التى تلت فشله فى هذه الثورة فى أسوأ حال ، وفى معزل هو الموت ، أو هو بالموت أشبه . وقد عانى آلام النفى ، وجحود الاولياء ، وتنكر الاصدقاء

وكان يوم ٣ ديسمبر سنة ١٨٨٢ هو الخاتمة الحقة لحياته ، وهو اليوم الذى صدر فيه الحكم عليه وعلى زعماء الثورة الستة بالاعدام ، ثم استبدل به النفى المؤبد

ففى صباح ذلك اليوم اجتمعت المحكمة العسكرية بقاعة مجلس النواب (مجلس الشيوخ الآن) برياسة محمد رؤوف باشا ، ووقف عرابى أمامها ، فوجهت اليه هذه التهمة :

« يتبين مما اوضحه مجلس التحقيق انك عصيت ، وحملت السلاح ضد الحضرة الخديوية ، فكنت بذلك مخالفاً للبند ٩٦ من القانون الحربى العثمانى ، والبند ٥٩ من قانون الجنايات العثمانى ، فهل تعترف انت بهذا العصيان »

وكان الاتفاق بين الحكومة والانجليز الذين عطفوا ـ عطفاً غريباً ـ على عرابى بعد الاحتلال ، ان يقدم الى المحاكمة بتهمة العصيان فقط ، على ان يعترف به . فوافق عرابى على هذا الاعتراف ، وكتب لمحاميه الانجليزى مستر برودلى وثيقة بذلك . فلما واجهته المحكمة بالتهمة ، أشار الى محاميه ، فوقف برودلى ، وقال :

— ان موكلى اعترف بارتكابه العصيان ، واليكم اعترافاً كتابياً ، واقراراً صريحاً بذنبه

ولم تدم المحاكمة طويلا ، ورفعت الجلسة للمداولة ، ثم اعيدت بعد الظهر . فأمر رؤوف باشا كاتب الجلسة ان يتلو الحكم ، فتلاه كما يأتى :

« بناء على اعترافك بالعصيان ، واقرارك بحملك السلاح ضد الحضرة الخديوية ، لم يكن للمحكمة الا ان تصدر باتفاق الآراء ، وعملا بالبندين ٩٦ و ٥٩ من القانون العثمانى ، الحكم عليك بالاعدام »

ثم وقف رئيس المحكمة ، وتلا الامر الخديوى بتعديل الحكم بالاعدام الى النفى المؤبد من الاراضى المصرية وملحقاتها . وحوكم الزعماء الستة بهذه الطريقة ، وحكم عليهم بهذا الحكم . وهم : محمود سامى البارودى باشا ، وعلى فهمى الديب باشا ، وعبد العال حلمى باشا ، وطلبه عصمت باشا ، ويعقوب سامى باشا ، ومحمود فهمى باشا

وأصدر الخديو توفيق أمراً فى ١٤ ديسمبر سنة ١٨٨٢ بتجريدهم جميعاً من رتبهم وأملاكهم . وجعل ثمنها تعويضاً للمصابين فى الثورة

* * *

اختارت الحكومة الانجليزية جزيرة « سيلان » لتكون منفى للزعماء السبعة ، فلما علم بها عرابى قال :

— ان المنفى فى هذه الجزيرة يسرنى ، لأن سيدنا آدم لما هبط من الجنة نزل بها . . !

وقبل ان يغادر مصر هو وزملاؤه فى ٢٨ ديسمبر بعث الي جريدة التيمس بمقال جاء فيه

« أغادر مصر مع الثقة التامة فى حسن مصيرها ــ بعد ما صار الامر موكولا الى الحكومة الانجليزية ــ لأننى أعتقد أن انجلترا صارت لا تستطيع ان تؤجل الاصلاحات التى قمنا للمطالبة بها ، وكافحنا من اجلها ، ولا بد ان تبدأ بالغاء المراقبة

الثنائية ، ولا تترك حكومة مصر فى ايدى الالوف من الموظفين الاجانب ، وتحرم ابناءها من ادارة شئونها ، ثم تطهر المحاكم الاهلية من اوضارها ، وتضع القوانين اللازمة لنظام الادارة ، وأهم من وضعها مراقبة تنفيذها ، ثم يؤلف مجلس للنواب يكون له حق الاشتراك فى ادارة شئون الامة المصرية ، ويمنع المرابين من الانتشار فى قرى الفلاحين . ولما كنت من ابناء الفلاحين الذين يحبون بلادهم ، فقد بذلت ما فى وسعى لاجراء هذه الأصلاحات ، ولكن لسوء الحظ لم يتح لى ان تتم على يدى فاذا أدت انجلترا هذه المهمة واستخلصت مصر للمصريين وضح للعالم جلياً ما هو الغرض الذى كان عرابى يسعى اليه

« إن جميع المصريين كانوا فى جانبى ، كما أننى وقفت نفسى على خدمة بلادى التى لن أتحول عن حبها إلى نهاية حياتى »

نزل الزعماء السبعة جزيرة سيلان ، فكانت حياتهم فيها أشبه بالموت . عانوا فيها من الآلام ما عانوا ، وذاقوا فيها من السقام ما ذاقوا ، فاعتلت صحتهم ، وتقوض بنيانهم ، فاستسلموا للشكوى ، وانحازوا إلى اليأس ، كما قال البارودى :

عناء ويأس واشتياق وغربة ألا شد ما ألقاه فى الدهر من غبن

وأثر النفى فى أحوالهم المعنوية ، فنشب بينهم الخصام ، واتهم بعضهم بعضا بأسباب الخذلان . وعاشوا فى هذا الضنك حتى صدر العفو عنهم ، وكان بعضهم قد توفى ، فعاد أحمد عرابى ، ومحمود سامى البارودى ، وعلى فهمى ، وطلبة عصمت . ولم يعمر الثلاثة الأخيرون طويلا

أما عرابى ، فقد جاء الى مصر فى اول اكتوبر سنة ١٩٠١ ، وكانت الحركة الوطنية التى يقودها مصطفى كامل فى أشدها ، والنفوس تغلى بالثورة ضد الاحتلال ، فصرح عرابى بحديث سياسى استنكره الوطنيون ، وأعرضوا لأجله عنه ، فاعتزل السياسة ، وعكف على كتابة مذكراته

***

لم تنهزم صحة « عرابى » على الرغم من تلك الحوادث الخطيرة ، ولم تؤثر

فيها صدمات الخيبة والفشل ، بل احتفظ بها حتى فى شيخوخته ، ولم يصبه من الأمراض إلا ما أصابه من رداءة الجو وحياة العزلة القاسية فى المنفى . ولما عاد الى مصر عادت اليه صحته ونشاطه ، وقضى الشيخوخة فى تربية أبنائه

بيد أنه فى يونيه سنة ١٩١١ أصيب بصدمة عائلية ذعر بها على مستقبل أولاده الصغار ، وأثر الحزن فى نفسه ، ومرض بعد ذلك بقليل بداء السرطان ، فنال الداء منه ما لم تنله الأيام ، وأخذ منه الخوف على أولاده ما لم يأخذه ظلام الخطوب وأهوال الحروب ، وحشد الجيوش القاهرة ، وقدوم الأساطيل الداخرة ، وخوض نيران المعارك ، ولقاء الأخطار والمهالك ، حتى كان على فراشه يقول :

— اوربا كلها لم تزلزل أقدامى ، لـكن الذى هد كيانى خوفى على اولادى

اشتد المرض على زعيم الثورة العرابية ، ودب السرطان فى جسمه يهدم منه ما لم يهدم ، ويأس الدكتوران المعالجان محجوب ثابت وصادق رمضان من شفائه . وكان يوم ١٩ سبتمبر سنة ١٩١١ فزاره أمين باشا سامى مهنئاً بنجاح ابنه فى الشهادة الابتدائية . ومكث كعادته يناقشه فى الثورة ، فـكان يردد دائما هذه العبارة : « يعلم الله أننى لم أخن بلادى ، وأننى خدمتها بما سوف تذكره الأجيال المقبلة ، وان أنكره الجيل الحاضر »

وفى ذلك اليوم شعر بتحسن بسيط فتاقت نفسه أن يأكل من طعـام « الجنبرى » فقدمه أهل بيته اليه ، وعلم الدكتور محجوب ثابت ، فهاله الأمر ، وصاح : « ما هذا . . لا حول ولا قوة إلا بالله . انى لأخشى على حيـاته من هذا الطعام »

وفى المساء شعر بآلام حادة ، فـكان يقول :

— متى يكون اللقاء . . أيكون بعد غد . . إنه لبعيد

وكانت هذه الجملة آخر كلماته ، ثم استغرق فى غيبوبة ، لم يع فيها ما حوله حتى فاضت روحه فى ٢١ سبتمبر سنة ١٩١١ ، فى مثل الشهر الذى اعتقله فيه الانجليز ، وانتهت فيه حياته السياسية كزعيم ، وحياته العسكرية كقائد

الشيخ علي يوسف

— نعم يا مولاى لقد خدمت بلادى نحو ربع قرن ذائداً عنها ، مدافعاً عن حقوقها ، مجاهداً فى سبيل الاسلام والمسلمين ، حتى فقدت المال ، وهو عماد الحياة ، وأضعت الصحة ، وهى تاج السعادة ، وانتابنى مرض القلب فحرمنى كل راحة ، وأضعف منى كل أمل . وكنت أشعر بأن لى قلباً يحملنى الى المجد ، فصرت أشعر بأنى أحمل قلباً يسوقنى الى الموت ، وما أظن إلا اننى خافق بين خفقاته ، وراحل فى صعقة من صعقاته

— لا تخف يا شيخ علىّ . لقد كدت تخيف بقلمك الموت ، ولقد حطمت فى طريقك مخاوف الحياة

— لقد نال يا مولاى منى هذا الداء ، وكان أثقل على نفسى مما أحمله من أعباء الديون . وما أرى الصحة إلا ديناً يقتضيه القدر منا بالأمراض ، ولا أرى الهناءة إلا قرضاً يجود به الدهر ، وعارية تسمح بها سانحة من الزمان

— لكنك قضيت ايام صحتك فيما يوجب لك الحمد من وطنك ، ويستأهل الجزاء الأوفى من ربك . فاذا شكوت اليوم الداء ، فما أحسبك تشكو من نفسك التقصير ، وتندم على فوات وقتك فى الاهمال

— احمده يا مولاى على كل حال . واذا مت فستطمئن روحى الى انى بذلت ما فى وسعى ، ونهضت بما استطعت فى سبيل مصر ، وفى سبيل الاسلام ، وفى سبيل الجامعة الاسلامية

— وفى سبيل الدستور . . .

— حقاً ، وفى سبيل الدستور ايضاً . لقد فرحت مع الفرحين من صميم

قلبي للانقلاب الدستورى فى الاستانة ، وقدرت الأبطال المجاهدين لحصوله حق قدرهم ، ولم أقف موقف الاعتراض عليه الا من حيث الشكل ، اما الموضوع فانى ارى الدستور لازماً لحياة الدولة العلية ، و بقاء الجامعة العثمانية . وقد كان هذا الانقلاب ضروريا ، لأن هذا العصر الذى يتقلص فيه ظل الحكم المطلق من كل مكان لم يكن ليسمح ببقائه فى الممالك العثمانية إلا والحوادث تمزقها كل ممزق ، ولئن خشيت شيئاً على الدستور ، فانما اخشى الجيش

— ولماذا ؟

— لأن السيف ، والحرية ، والدستور ، لا تبيت فى جراب واحد

— صدقت

— ولأن تدخل الجيش فى الأعمال السياسية والادارية ، خطر على الدستور ، وخطر على كيان الأمة . والواجب ان يقف الجيش موقف الحارس .

وقد بعث لى الاستاذ سليمان البستانى من الاستانة يعاتبنى على ما كتبته فى المؤيد انتقاداً لتدخل رجال الجيش العثمانى فى الشئون السياسية والادارية ، فأجبته بأن هـذا التدخل أفقد الدولة التوازن بين الحزبين السياسيين اللذين فى مجلس المبعوثان ، وفقدان التوازن قد حصر السلطة فى يد فريق من الفريقين المتنافسين عليها فى وقت لم تتشبع فيه النفوس من المبادىء الدستورية الحقيقية ، فـكان التذابح الذى وجد بين الحزبين . فاذا كان الانقلاب الذى جرى بعد ذلك قد خلع سلطاناً مستبداً ، فانه أيد استبداد جماعة لا يمكن أن تبقى للامة وحدتها معهم إذا استمر استبدادهم بشئون الحـكومة والامة . ولهذا نخشى أن يفضى العمل الذى أريد به الدستور إلى تمزيق شمل الأمة

قال الخديو عباس حلمى الثاني :

— أصبت . ولقد قرأت مقالاتك فى هذا الانقلاب ، فقدرت آراءها ، وأكبرت فوائدها للدولة وللاسلام . وما أكثر ما أفدت أيها « السيد » بآرائك ومقالاتك

ـــ لـكنى جنيت بهذه الفوائد مرضاً أليماً ، وديناً جسيما ، وأحسنت إلى الدولة وأسأت إلى نفسى . وما أظن الا انى ملاق حتفى عما قريب ، ولى يامولاى ملتمس أرفعه إلى سموكم

ـــ ما هو ؟

ـــ بمدينة الاسكندرية وقف يقال له وقف السيد عبد الرازق الوفائى ، يتولى النظارة عليه ديوان الأوقاف ، وهو تابع لوقف السادة الوفائية التى أتولى النظارة عليه ، فهل لمولاى أن يصدر أمره بتحويل نظارة هذا الوقف وجعله تحت نظارتى

ـــ سأبحث الموضوع ، وسآمر باصدار أمر خديوى بذلك ، وربما وقعت هذا الأمر عند المقابلة لصلاة الجمعة ، ويحسن أن تقابل شفيق باشا

* * *

كان ذلك فى مايو سنة ١٩١٢ والخديو عباس حلمى يصطاف بالاسكندرية ، وقابله الشيخ على يوسف بقصر رأس التين

وفى يوم الخميس التالى ذهب الشيخ على يوسف إلى أحمد شفيق باشا مدير ديوان الاوقاف وقتئذ ، وحادثه فى موضوع الوقف ، فأخبره أن البحث دل على ان عبد الرازق الوفأى لا ينتمى لعبد الرازق الوفأى التابع لأبى الانوار السادات الذى يتولى نظارته الشيخ على ، وان الاسم لمسميين ، وان بين الواحد والآخر جيلا كاملا . فاعترض الشيخ على يوسف ، وناقش مدير الاوقاف مناقشة طويلة، ثم قام غاضباً

وفى يوم الجمعة ذهب إلى قصر رأس التين ، ليقابل سمو الخديو ، وليعرض عليه ما دار بينه وبين أحمد شفيق باشا . فاستأذن سموه ، ولما مثل أمامه أخذ يشرح أمره فى تأثر عظيم ، وطال الشرح فاشتد خفقان قلبه ، وشعر بوخز شديد ، ثم أغمى عليه بين يدى الخديو ، فاستدعى له طبيب القصر ، فقام باسعافه حتى أفاق من هذه النوبة القلبية التى كانت تصيبه فى بعض الأحيان

وكان فى قصر رأس التين وقتئذ سعد زغلول باشا ، واسماعيل أباظة باشا ، وحافظ بك عوض ، وشهدوا ما أصاب الشيخ على ، فاهتزت عواطفهم ، وكلهم صديق له ، مقدر لمكانته ، معترف بفضله

ودخل عليهم أحمد شفيق باشا فقالوا له :

— ماذا بينك و بين « الشيخ » وحجته قوية ، و برهانه واضح ؟ !

فأبدى لهم شفيق باشا رأيه . ثم دعى لمقابلة الخديو . فلما دخل وجد محمد سعيد باشا جالساً عنده ، فعرض البحث على سموه ، فقال سعيد باشا :

— لكن الشيخ على جدير بالتساهل ، ولست أرى رأيك فى الموضوع

فقال شفيق باشا :

— إن المسألة مسألة شرعية ، فلماذا يطلب الشيخ على من الخديو أن يقضى فيها ؟

وأحيلت هذه المسألة الى لجنة تبحثها وتقضى فى الموضوع ، وصرف المرض الشيخ على يوسف عن متابعة هذه اللجنة ، وكان داؤه يتفاقم بتوالى الايام

***

وكان الشيخ على يوسف قد اعتزل الصحافة قبل هذه الحادثة بنحو شهرين — أى فى ٦ مارس سنة ١٩١٢ — لاسناد مشيخة السادة الوفائية اليه . فكتب فى جريدة المؤيد كلمة الوداع ، فقال :

« إلى سادتى . واخوانى . ورصفائى قراء المؤيد

« بعد ثلاث وعشرين سنة أنشأت فيها « المؤيد » وقمت بتحريره مسئولا عنه ، قد اضطررت منذ الامس بمقتضى أسباب عائلية قوية الى ان أودع مهنة الصحافة التى أحترمها،وأعتبرها من أشرف الاعمال المفيدة كثيراً للهيئة الاجتماعية — بل اضطررت الى ان أودعكم راجياً ان تكونوا حفظة كراماً خيرين تذكرون الحسنة وتنسون السيئة (ان الحسنات يذهبن السيئات)

« على اننى مع هذا الوداع انما أترك وظيفة التحرير فى المؤيد ، وقد صار قوة

كبرى فى خدمة الأمة ، بل انه بحيث لم أصبح فيه إلا عاملا من جملة عمال كثيرين ، وكاتباً بين كاتبين ، فهو لا يخلو يوما واحداً من آثار أقلام عشرات من كبار الكتاب المفكرين ، ولا يضيره ألا يكون فيه واحد من هؤلاء . ولن تتخلى عنه الأمة التى أصبح هو وديعة فى ذمتها إن تخلى عنه قلم من بين أقلام المحررين

« وفضلا عن هذا ، فانى إذا تركت قلمى بجانبى ، فلم أكسره . وان عطلت وظيفة لى فى المؤيد ، فلم أعطل فكرى وضميرى . وسأقوم بما يجب علىّ لوطنى كلما دعانى هذا الواجب بقدر ما أستطيع

« كما اننى سأبذل جهدى فى القيام بأعباء جمعية الهلال الأحمر (وكان قد انشأها) لجعلها جمعية ثابتة قادرة على الدوام أن تؤدى وظيفتها المقدسة التى تطلبها منها عواطف الانسانية الرحيمة

« وأسأل الله أن يوفقنى وایاكم فى خدمة الأمة والملة لما يحبه ويرضاه »

ودع الشيخ على يوسف الصحافة ، فكانت مفاجأة اهتزت لها نفوس القراء فى جميع أنحاء القطر ، بل فى جميع أنحاء العالم الاسلامى . وتوالت الرسائل على المؤيد ، تلح فى عودة « الاستاذ » الى الكتابة ، وأسف الناس كلهم لحرمانهم من هذا القلم الذى وصفه حافظ ابراهيم بقوله :

فى شقه ومراميـــــه وريقته ما فى الأساطيل من بطش ومن عطب
كم رد عنا وعين الغرب طامحـــة من الرزايا ، وكم جلى من الكرب
له صرير إذا جد النزال به ينسى الكماة صليل البيض والقضب

وبلغ التأثر بمحررى جريدة المؤيد من وقع هذه الاستقالة أن قدموا استقالتهم اليه قائلين : « إن المؤيد جسم أنت روحه ، وسعادتنا بالعمل فيه هى بالنسبة لكوننا مرؤوسين بك ، وحيث أنك استقلت من إدارته ورياسة تحريره ، فنرجو أن تقبل استقالتنا » ، فجمعهم ، وجعل يطمئنهم ، ويشرح الأسباب التى



الشيخ علی يوسف



جرجي زيدان بك



باحثة البادية



حفني بك ناصف

أدت به الى الاستقالة للانصراف لخدمة منصبه الجديد

* * *

اعتزل الشيخ على يوسف الصحافة ، وودع الكتابة ، وانصرف لخدمة السادة الوفائية . وفى أثناء ذلك رفع ملتمسه السابق لضم وقف السيد عبد الرازق الوفائى الى وقف أبى الأنوار السادات ، فوقع بينه و بين صديقه أحمد شفيق باشا مدير ديوان الأوقاف خلاف لم يؤثر فى العلاقة التى بينهما ، ولم يلبث أن عاد الى صفوه ، واستأنف معه سابق وده . وكان نقاء قلب الشيخ على يوسف وكرم نفسه من أبرز صفاته ، ولقد كانت بينه و بين مصطفى كامل باشا منافسة حامية تقطع بين الأخوين ، وخصومة سياسية عاصفة تقتلع ما بين الأقربين ، ومات « مصطفى » فكان بكاؤه عليه بكاء الشقيق المنكوب ، ورثاؤه له رثاء الصديق المسلوب . ولا والله ما رثى كاتب ولا شاعر زعيم مصر الشاب يوم وفاته بمثل ما رثاه الشيخ على يوسف فى مقاله الذى ظهر فى المؤيد ، فأشاد بمواهبه ، وأطرى جهاده ، وأكبر خدماته للوطن ، فقال فيما قال :

« اليك أيها الصديق القديم أرسل تحية الحزين من سويداء قلبه الى أعماق قبرك ، ذاكراً لك تلك السنين الثمانى عشرة التى قضيناها معاً فى خدمة الوطن . لافضل لما كان بيننافيها من صفاء على ماتخلل صلاتنا بعد ذلك من جفاء ، فقد كنا متناظرين ، أقرب منا الى انفسنا متناصرين ، لا تحفل الا بما أكتب ، ولا اهتم الا بما تقول ، ولكن الصلات الشخصية كثيراً ما يعتريها بين الأخوين من الأبوين — فضلا عن الصديقين — فلول ، ثم تزول

«واليك أيها الصديق القديم،والرصيف العظيم تحية محزون يعرف لك اكثر من كل انسان خدمتك العظيمة التى خدمت بها وطنك ، فأيقظت من شعور الوطنيين ما قامت مظاهرات الأمس اكبر برهان على مقدار ما كان لك فيه من حسن اثر ويد بيضاء »

وكذلك كان الشيخ على يوسف مع سائر اصدقائه ، فلما حدث ما حدث

بينه و بين شفيق باشا مما أصابه بالاغماء بين يدى الخديو ، لم يحقد عليه ، ولم تعاوده موجدة كلما عادت اليه هذه النو بة القلبية . وقد استمر طول العام الأخير من حياته يصارع نو باته صراعاً عنيفاً حتى كانت ليلة الخامس والعشرين من شهر اكتوبر سنة ١٩١٣ فاشتد به الداء ، وثقل عليه العناء ، واضطرب النبض ، واستحرت فى قلبه الآلام ، واستبدت دقاته كأنما هى وقع السهام

فان أفشى النسيم لكم حديثاً   بأنى قد قبرت فلا تشكوا
فمهما جئتمو بعدى فصلوا   على قبرى الجنازة ثم فابكوا *

وفى منتصف الليل طلب من أهله ان يدعوا صديقه عبد الخالق مدكور باشا ، فحضر اليه ، حانياً عليه ، و وجده فى حال تستدر الشئون ، ينوء بأوصابه ، ويهم من فراشه جالساً فى شهيق يفتت الاكباد ، وتلتاع له الأفئدة ، ثم ينتفض ماشياً فى هجوم كأنما يدفع عنه عدواً ، أو يرد مفترساً يريد أن ينقض عليه ، فيسلبه أعز شىء لديه ، حتى اذا وهنت قواه سقط على مقعده ، أو تخاذل فى مضجعه ، أو عانق صديقه عناق المستجير من الآلام ، المستغيث من وخزات السهام

فواهاً لك أيها القلب ، طالما عشت دهراً كنت فيه لهذا الرجل العظيم منبع القوة ومبعث الحياة ، وأداة السعادة والمجد . ثم أصبحت مصدر الضعف ومثوى الآلام ، ومورد الشقاوة والحمام !

وهمد الرجل العظيم فى مكانه ، فظن الواقفون حوله انه قد فاض ، فأقبلوا عليه يستيقنون ، ففتح عينيه وعاد لشكاته . وضاق بفراشه فهم بالخروج من بيته فمنعوه ، فطلب أن ينقل إلى قصر السادات بالجاميز - وكان وقتئذ مقيما بحدائق القبة - فأجابوا طلبه ، وحمل فى عربته فى وجه الفجر الى هذا القصر . فعانى سكرات الموت فى الطريق . وما كادوا يطمئنون به فى سريره حتى زايل هذه الحياة بصعقة قلبية . فاستأثر الله به و رفعه الى دار كرامته ، وأراحه من نو بات قلب يسعد و يشقى ، و يريح و يؤلم ، و يحيى و يميت !

---

* البيتان من ديوان « السحر » نظم الشيخ على يوسف

جورجي زيدان بك

أتهم المرحوم جورجى بك زيدان بأنه هو الذى أمات نفسه

وإذا كان بعض الشعوب يعتقد ان موت بعض السحرة من عملهم ، وانهم هم الذين يرتكبون « جريمة الموت » ضد أنفسهم ، فانى هنا أقول : إن جورجى زيدان هو الذى ارتكب هذه الجريمة القاسية ضد نفسه ، وضد العلم ، وضد النهضة الحديثة التي يعد من خيرة رجالها فى الشرق ، وضد قرائه وعشاق آثاره . وقد كان يستطيع ـ لو سمحت الاقدار ـ أن يعيش كما يعيش معظم الناس عشرين سنة أخرى فوق الثالثة والخمسين التى مات فيها

ومن عجب ان يكون مرشداً رشيداً ، داعياً إلى المحافظة على الصحة ، وعدم الافراط فى العمل ، ويكتب فى احدى مقالاته « احفظ شبابك والكهولة تحفظ نفسها » ، ويوصى بالاعتدال ، واعطاء النفس حقوقها ، ثم يسرف هو فى جهاده ، ويجود فى خدمة العلم بأقصى مجهوده ، ولا يشفق على نفسه ، ولا يرحم جسمه يوما أو ساعة من نهار ، فملأ حياته عملا وإنتاجاً ، وكلف أعصابه جهداً جباراً ، وسمى بجده إلى المجد الادبى ، وتبوأ بعصاميته ذروة السؤدد العلمى ، وهو القائل : « إذا قرأت ترجمة رجل عظيم أنهض نفسه من دركات الفقر الى مراقى المجد والسؤدد ، فاعلم انه اكتسب ذلك بالنشاط والاقدام والصبر على مضض الأيام . ولا يكون ذلك إلا بالاعتدال »

لكنه ـ مع ما وصل اليه من مكانة ـ كان مسرفا فى العمل ، وان كان قد أخذ نفسه بالقناعة والاعتدال فى غير جهاده العلمى ، ونشاطه الفائق ، ونهمه الغريب فى التصنيف والتأليف . وقد شاركنا أحد معاصريه الاستاذ خليل مطران فى

هذه التهمة التى تتهمه فيها بأنه قتل نفسه صبراً ، فقال فى وصفه :

« . . يكد بلا انقطاع ، و يعتقد السعادة كل السعادة فى العمل . ومن توفيقه أنه كان بديناً قوى الجسم فلا يشعر بالتعب ، ولـكن ذلك التعب فى النهاية هو الذى قتله ، فخر صريعاً »

وكذلك قال المرحوم خليل سركيس : « . . على انه أخطأ من جهة واحدة فقط ، وهى انه كان صديقاً للجميع ، عدواً لنفسه ، فلم يشفق على جسمه . ولا رحم قواه ، فظلم نفسه ، وذهب شهيد العمل الشاق ، إذ حكم على نفسه بالأشغال الشاقة ، ولـكنها أشغال استفاد منها العالم العربى »

***

كان صباح الثلاثاء ٢١ يوليه سنة ١٩١٤ ،فقصد جورجى بك زيدان مكتبه كعادته . وكان فى ذلك اليوم أكثر ما يكون صحة ونشاطا ورغبة فى العمل . فأكمل كتابة مقالات العدد الأخير من السنة الثانية والعشرين من الهلال . وراجع آخر ملزمة فى الجزء الرابع من كتابه « تاريخ أدب اللغة العربية » . وهو الجزء الذى ختمه بفصل عن رجال العلم والادب والاصلاح السياسى والاجتماعى فى النهضة الشرقية الحديثة . وكان آخر من ترجم لهم فى هذا الفصل مصطفى كامل باشا . وقد كتب فى ترجمته هذه العبارة :

« ولد مصطفى كامل بمصر سنة ١٨٧٤ وتفقه مثل الشبان المصريين، لـكنه جاهد جهاداً شديداً أنهك قواه ، حتى توفى وهو فى مقتبل العمر »

وما ذرى انه ينهك هو أيضاً قواه ، وانه سيموت كما مات مصطفى صريع الاجهاد الشاق . واستمر جورجى بك فى مكتبه يكتب ويراجع ويصحح ، حتى حانت التاسعة مساء ، فغادر مكتبه ، وذهب الى بيته حيث كان يسكن بحى الظاهر بالقاهرة . فتناول عشاءه الخفيف دون أن يشعر بشىء غير عادى

وكانت تلك الليلة هى تمام السنة الحادية والعشرين من سن نجله الأستاذ اميل بك زيدان ، فجلس هو وشقيقه الاستاذ شكرى يتحدثان الى والدهما عن

عيد الميلاد ، وعما سوف يهديه الى « اميل » من هدايا . وكانت عقيلته وكريمته في ذلك الوقت يصطافان بلبنان ـ فجعل يحدث نجليه عن أعياد الميلاد ، ويفيض في حديثه العلمي والاجتماعي . وكان الشقيقان مبتهجين بهـذا الحديث ، والاب سعيداً بهذا الابتهاج ، مغتبطاً كل الاغتباط

وقضى الجميع ساعة سارة طافت فيها أحـلام الشابين بعوالم الهناء والغبطة والسعادة الطويلة فى ظلال هذا الأب البار الرحيم

ثم نهض الجميع الى الفراش ، وأوى كل الى مضجعه ، فنام نوما هادئا ، لا قلق فيه ، ولا فزع ، ولـكن . نعم ، ولـكن الموت كما قال شوقى فى رثائه :

وما علمت رفيقاً غـير مؤتمن　　كالموت للمرء فى حل وترحال

أرحت نفسك من دنيا بلا خلق　　أليس فى الموت أقصى راحة البال

لم يعلم الجميع ان الموت فى تلك الساعة يطل من وراء حجاب ، وان شبحه يقف وراء هذا الوالد ماداً يديه ، يوشك أن يختطفه . فلما رآهم مبتهجين فى مجلسهم ، وسمعهم يتحدثون فى سرور عن الاعياد ، وقف ينتظر ـ وكأنه أشفق أن يفزع الشابين اليافعين فى تلك الساعة ، وان يفجعهما فى أبيهما المحبوب فى تلك الجلسة التى ملئت سعادة وهناءة وعطفاً ـ فأشفق عليهما ، وليته استمر فى اشفاقه ، ورفق بقلبيهما ، وليته أطال هذا الرفق ، وأخر تلك الفجيعة التى شاء أن يسوقها فى الظلام

نام « جورجى بك » ، ونام نجلاه مطمئنين ، لا يفكران في حدث من الاحداث ، ولا يمر بخلدهما خطب من الخطوب ، ولا يشغلهما على صحة والدهما شاغل مخيف

ناما وكلهما آمال وأحلام سعيدة ، وليس فى ذهنهما إلا ما فى أذهان سائر الناس من أنباء الحرب وما نتج عنها من ضيق عام . وفى نحو الساعة الحادية عشرة استيقظا فزعين على صوت شهقات قوية فى غرفة « الاب »

أسرع « اميل » و « شكرى » فوجدا والدهما يعانى ضيقاً شديداً فى

التنفس ، ويغالب الموت ، والموت يغالبه ، ويصارع القضاء ، والقضاء يصارعه ، وينتصر لحياته ضد موته ، ويجاهد للبقاء ضد الفناء ، كما كان ينتصر لنور العلم ضد ظلام الجهل ، ويجاهد لبقاء الأصلح ضد فساد المجتمع ، وانحطاط الأخلاق

واستدعى الطبيب لاسعافه ، ولكن متى ينفع الطبيب وإسعافه ، والطب وعلاجه ، إذا كان القضاء يريد أن ينفذ سهمه ، ويقضى أمره

ووقف الطبيب حائراً ، وقد استسلم جورجى بك للموت بعد الصراع العنيف ، وأخذ يجود بروحه ، ويودع هذا العالم الفانى ، منطلقاً الى العالم الباقى

ووجم الجميع حين قال الطبيب : « إنه قضى » . وهدأ الفقيد على فراشه ، وسكنت فيه كل حركة ، وانقطع منه كل نفس ، وجمدت فى عينيه النظرات . ولكن وجهه الصبوح ، وملامحه الباسمة بقيت كما كانت حية ناطقة ، فشك أهله فى موته ، وأعادوا الكشف عليه ، فأكد الأطباء أنه مات موتاً طبيعياً

واحتفلوا بجنازته ، وساروا به إلى المدفن بمصر القديمة ، فعاد أهله الى شكهم فى وفاته ، لأن الموت لم يستطع أن يقنعهم بأماراته ، وأخروا دفنه الى اليوم التالى

فى تلك الليلة الهائلة فزعوا إلى الأمل ، وضرعوا إلى الله أن يؤخر أجله ، وأن يرده من كفنه كما كان سليما معافى . حتى إذا كان الصباح أسرعوا مع الأطباء الى مدفنه ، وكشفوا عن نعشه ، وهم يؤملون أن يعودوا به الى منزله دون رمسه . لكن خاب الأمل ، إذ كان هذا الحادث الفجائى الذى نزل به فى الليل هو الاجل المحتوم ، وكانت تلك النهاية هى النهاية الاخيرة التى يعجز أمامها الطب ، ويضيع لديها كل رجاء . فلحق الفقيد بالعلماء والأدباء ورجال الاصلاح الذين أرخهم بقلمه كما قال الأستاذ خليل مطران فى رثائه :

لحقت بمن أرختهم ، فكأنكم ... لدات لعهد لم تفرقه أدهر
على الحى دون الميت تحسب أدهر ... توالت وتحصى فى التعاقب أعصر
ورب عليم لم يجىء متقدماً ... أتم علاه أنه متأخر

باحثة البادية

ورفع الطبيب يده وهو يقول :

« خلاص . . ضاع الامل » . . !

وصاح الحاضرون :

« ماتت ملك » . . !!

وأجهش الجميع بالبكاء . . .

وذهل الوالد « الشيخ » حفنى بك ناصف ، وكأنه لم يكن مقدراً أن للموت سلطاناً على « باحثة البادية » ، أو كأنه كان يرى أن لها من نبوغها وفائدتها للمجتمع ، شفيعاً لدى الاقدار ، يدفع عنها اليأس ، ويضمن لها الحياة أبد الدهر . وقد خدعته عاطفة الابوة التى تحتل جوانح الآباء ، وتزين لهم أن أبناءهم فوق الموت ، ولا يستطيعون ان يتصوروا ان للموت يداً تمتد اليهم فى يوم من الايام ، وهم فى خداع هذه العاطفة القوية الطاغية لا يكادون يؤمنون بفناء الابناء حتى فى الخيال ودائرة الاوهام ، فكيف بالواقع ؟ !

فاذا حدث ما ليس منه بد ، ووقع ما ليس منتظراً ، وصدمتهم الحقيقة ، كانت الكارثة عظيمة ، والفجيعة لا تحتمل ، والمصاب هائلا ، والصدمة مما يصرع النفوس ، ويذهل الافكار

لم يكن من الغريب إذن على « الوالد » حفنى ناصف ان يذهل يوم وفاة « باحثته » بل لعله من الغريب ألا يذهل لذبول زهرتها ، وخمود جذوتها فى ربيع الحياة ، وفى وقت كانت تقود فيه نهضة نسائية ، وتقوم بحركة اصلاحية فى حياة المرأة المصرية . وكانت كاتبة شاعرة ، خطيبة تناقش وتدافع عن المرأة وعن

حقوقها المهضومة ، رائدها فى ذلك الاعتدال ، والسير على سنة الدين الحنيف من المبادىء السامية التى تتمشى وحاجة المجتمع وتطوره ورقيه

وكانت تدعو الى مجاراة العصر الحاضر بقدر ماتسمح به الحاجة ، والاقتباس من الحضارة الاوربية بقدر ما يلائم حياة البلاد وينفع الحياة العائلية والاجتماعية ، ولا ينافى القومية وروح الاستقلال التى تجب المحافظة عليها . وقد قالت فى محاضرة ألقتها على السيدات فى نادى حزب الامة :

« ان الضعيف إذا لم يرزق قوة التميز خيل له ان كل ما يأتيه القوى حسن، ذلك مثلنا امام المرأة الغربية ، فهل ترون أن نثبت للملأ خمولنا وخلونا من التمييز ؟ أو ترون ان نعمل على حفظ قوميتنا وتقوية روح الاستقلال فينا وفى الاجيال القادمة من أولادنا ؟

« اذا أردنا أن نكون أمة بالمعنى الصحيح ، تحتم علينا ألا نقتبس من المدنية الاوربية إلا الضرورى النافع بعد تمصيره ، حتى يكون ملائما لعاداتنا وطبيعة بلادنا . نقتبس منها العلم والنشاط والثبات ، وحب العمل . نقتبس منها أساليب التعليم والتربية ، وما يرقينا حتى نبدل من ضعفنا قوة . ولا يجوز فى عرف الشرف والاستقلال ان نندمج فى الغرب ، فنقضى على مابقى لنا من القوة الضعيفة أمام قوته المكتسحة الهائلة »

وقالت فى موضع آخر : « لا أدرى أتفضل المرأة الغربية فى معرض الاخلاق أم تفضلنا ، فهى أشجع منا فى اقتحام الخطوب ، وان كانت لا تقل عنا فى المصائب، ونحن لا ينقصنا ذكاء كذكائها ، وانما ينقصنا عزم وثبات كعزمها وثباتها . هى تعمل لتعيش ، ونحن نتكل اما على آبائنا أو أزواجنا ، فلا نعمل شيئاً . وهذا الاتكال معيب فى نفسه

« والمرأة الغربية تعتنى بكل شىء حتى التافه ، ونحن بما ركب فى طبعنا من المسالمة نميل الى الاهمال والكسل . وهى ولا شك أنشط منا ، وأثبت على العمل إلا أننا أكثر قناعة ، وأشد رضا بالقليل »

وكانت تجاهد فى سبيل مبادئها طوراً بالـكتابة فى الصحف ، وطوراً بالخطابة فى المجتمعات ، وكانت فى ذلك أمل الوالد ، وفخر مصر . وهى أول فتاة مصرية بل شرقية انبرت تـكتب وتخطب وتنظم الشـعر فى الدفاع عن حقوق جنسها ، وعن حقوق الرجال أيضاً . وقد قالت قصـيدة حينما اعلن قانون المطبوعات الذى يحد من حرية الصحافة جاء فيها :

يا أمة نثرت منظومها الغـير	حتام صـبر ونار الشر تستعر
ماذا تقولون فى ضيم يراد بكم	حتى كأنـكم الاوتاد والحجر
ستسلبون غداً أغلى نفائسكم	حرية ضاع فى تحصيلها العمر
حرية طالما منوا بهـا كذباً	على بنى النيل فى الآفاق وافتخروا

بقيت «ملك حفنى» او باحثة البادية كما كانت تسمى نفسها تجاهد فى سبيل مبادئها ، وتخدم النهضة النسائية مع قيامها خير قيام بالواجبات الزوجيـة ، وقد امتحنت فى حياتها امتحاناً قل ان تصبر عليه فتاة ، ومع ذلك فلم تنل المحنة من آرائها فى حقوق الرجال والنساء ، ولم تؤثر الحوادث الممضة فى اعتدالها وحكمتها فى معالجة مشكلة الجنسين ، وان اثرت فى صحتها ، وأبقت فى عقلها الباطن آثاراً كانت تهرف بها قبيل الوفاة

ضعفت صحتها فى اواخر سنى الحرب الـكبرى ، وهى بعد لم تتجاوز الثانية والثلاثين ، وزاد فى ضعفها ما كانت تعانيه من آلام نفسية لمرض والدتها ، وشيخوخة ابيها ، واتهام شقيقها « مجد الدين » بتهمة سياسية كادت تؤدى به الى الحكم عليه بالاعدام فى عهد السلطة العسكرية التى فرضت الاحكام العرفيـة على البلاد

فى وسط هذه الآلام ، وبين هذه الاعباء التى كانت تحملها بصبر وجلد ، وعزم وثبات ، اصيبت سنة ١٩١٨ بالحمى الاسبانيولية ، وهى ببادية الفيوم ، فنصحها الطبيب ألا تفارق غرفتها ، ولا تركب عربة ولا قطاراً ، ولـكنها الأخت الحنون ، والابنة البارة التى ترى من واجبها ان تلازم والديها يوم الجلسة التى

حددت للنظر فى تهمة أخيها أمام محكمة الجنايات ، فخاطرت بحياتها ، وخرجت برغم ارادة طبيبها ، وسافرت الى القاهرة ، ونزلت بمنزل أبيها بشبرا . وجاءها نبأ براءة مجد الدين ، فسرت واطمأنت ، ولكن الحمى كانت قد تمكنت منها ، واتاح لها عبء السفر ان تتفاقم شدتها ، حتى اضعفت حركة التنفس ، فنصح الطبيب بمساعدتها بالاكسيجين ، فكان يعبأ لها فى انابيب جلدية ويعطى لها

وفى يوم ١٧ أكتوبر ساءت حالتها ، واشتدت وطأة الحمى عليها ، وذهب شقيقها مسرعا إلى الصيدلية لجلب الاكسيجين . وما كاد يعود إلى منزله حتى قابل فى الطريق زوجها عبد الستار بك الباسل وقد عقد لسانه ، وبدا عليه الهلع ، فأيقن ان الخطب قد نزل ، وان « باحثة » قد فارقت الحياة بهمومها وآلامها ، وصعدت روحها إلى السماء

ولكنه فزع بآماله الى الكذب ، واصطحب زوجها إلى أقرب طبيب ، فاستدعياه ، وذهبا معه إلى حيث ترقد الأديبة النابغة على فراشها ، وخادع الجميع أنفسهم فى موتها ، وزعموا انها مغمى عليها . ولكن أين الاغماء من الموت ؟ وأين الخداع من الحقيقة ؟ وما كان للموت أن يخدع . وأقر الطبيب بعجزه ، واستسلم للقدر ، ورفع يده وهو يقول :

« خلاص ، ضاع الأمل » وصاح الجميع : « ماتت ملك »

وذهل الوالد حفنى ناصف ، وخرّ صريع الأشجان والآلام كما قال حافظ ابراهيم :

قد زعزعتـــه يد القضا ء وزلزلته يد القـدر
أنا لم أذق فقد البنـــين ولا البنات على الكبر
لـكننى لمـــا رأيـــت فؤاده وقد انفطر
ورأيته قد كاد يحـــرق زائريه اذا زفر
وشهـدته أنى خطا خطواً تخبـل أو عثر
أدركت معنى الحزن ــ حز ن الوالدين ــ فما أمر

حفنى بك ناصف

فى سـنة ١٩١٤ أحالت وزارة المعارف الى حفنى بك ناصف تطبيق رسم المصحف الشريف الذى طبعته على رسم مصحف الامام عثمان بن عفان ، وعاونه فى هذا العمل المرحوم الشيخ أحمد الاسكندرى ، والشيخ مصطفى العنانى . وفى أثناء ذلك بلغ الستين من عمره ، فأحيل إلى المعاش مع بقاء هذه المهمة مسندة اليه والى زميليه . وقبل ان يحل ميعاد اعتزاله وظيفة المفتش الأول للغة العربية بوزارة المعارف بعشرين يوماً كتب هذه الأبيات ، وكأنه كان يحس فى أعماق نفسه قرب نهايته ، فقال :

برزت فى سحر البيا ن وشاب فيـه مفرقى
وقضيت عمرى فى البلا غة سابقاً لم ألحق
وخدمت ديوان المعا رف مخلصاً بتفـوق
والآن أذن بالرحيـــل مؤذن لم يشفق
عشرون يوماً قد بقيـــن وبعدها لا نلتقى
فتبلغى يا نفس بالـــمفروض للمسـترزق
فات الـكثير من الحيا ة وقل منها ما بقى

وكان حفنى بك أحد العلماء والادباء الستة الذين وقفوا على قبر الامام الشيخ محمد عبده يوم وفاته يرثونه ، وهم : الشيخ احمد أبو خطوة ، وحسن عاصم باشا ، وحسن عبد الرازق باشا الـكبير ، وقاسم بك أمين ، وحفنى بك ناصف ، وحافظ ابراهيم . وقد اتفق ان مات الأربعة الأولون على الترتيب ، ولاحظ حفنى ناصف

ذلك ثم مرض حافظ ابراهيم ، وخاف الموت ، فبعث اليه يطمئنه بهذه الأبيات :

أتذكر اذ كنا على القبر ستة ... نعدد آثار الامام وندب
وقفنا بترتيب وقد دب بيننا ... ممات على وفق الرثاء مرتب
أبو خطوة ولى وقفاه عاصم ... وجاء لعبد الرازق الموت يطلب
فلبي وغابت بعده شمس قاسم ... وعما قليل نجم محيـاى يغرب
فلاتخش هلكا ماحييت وان أمت ... فما أنت إلا خائف تترقب
فخاطر وقع تحت القطار ولا تخف ... ونم تحت بيت الوقف وهو مخرب
وخض لجج الهيجاء أعزل آمناً ... فان المنايا عنك تنأى وتهرب

ولما مات جورجى بك زيدان رثاه حفنى بك ناصف بمرثية ذكر فيها فواجع الموت فى الحرب الكبرى ، ووصف هذه الحرب الحديثة وصفاً دقيقاً ، بل وصفاً يدل على سعة اللغة العربية ، وسهولة تطورها مع تطور العصور متى كان الكاتب أو الشاعر متمكناً من لغته ، قديراً على الافصاح والتعبير فى كل غرض من الاغراض قال :

تعـال فأرخ للانام حوادثاً ... تشيب لها الولدان هولا وتهرم
وأرهف يراعاً للكتابة ماضياً ... فقد جاء عصر بالحوادث مفعم
لئن كان ما أرخت فى زمن مضى ... عظيما ، فما نستقبل اليوم أعظم
مدافع تستك المسامع دونها ... وتخرج من أفواههن جهنم
اذا فغرت أفواهها لكريهة ... تدك الرواسى ، والحصون تحطم
وسفن تبارت فى المسير أراقماً ... اذا زال منها أرقم صال أرقم
اذا انساب منها بضعة نحو معقل ... فلا شىء مما ينفث الموت يعصم
وغواصة كالحوت تسبح خفية ... تطيح برماها سفائن عوّم
وطيارة لا يبلغ النسر شأوها ... تدل على جيش العدو وترجم
فتنقض منها كالصواعق تارة ... كرات ، وأحياناً تسدد أسهم
وأنبوبة تنساب منها سوائل ... ترد هواء الجو يعمى ويبكم

متى فارقت أنبو بها صرن صرصراً اذا اشتم منها القوم فالقوم جثم
ففى الجو تصعاق، وفى البحر مارج وفى البر أعضاء تطير ، ومعصم
وفى كل ناد رنة وتحسر وفى كل دار أينما سرت مأتم
فيا ويح شبان تخوض غمارها ويا ويل شبان عن الموت أحجموا
لك الحق فانعم حيث أنت مع الألى تحب ، وخيم بينهم حيث خيموا
وفاخر بدار ليس فيها تباغض ونافس بحكم ليس فيه تحكم

قال تلك الأبيات حفنى بك قبل أن يموت بخمس سنوات ، وكان منذ أحيل الى المعاش متشائما لا يرتاح الى الحياة ولا يطمئن اليها ، ويشعر بقرب أجله . وقبل أن يموت بنحو عام أصيب بشلل جزئى فزاد تشاؤمه ، وعز رجاؤه فى حياة قضاها فى جهاد وعناء ، وأيقن أن الموت مقبل عليه ، وأن ما بقى له من دنياه لا يتجاوز بضعة أشهر أو أسابيع . وكتب وهو على فراشه هذه الأبيات :

أتقضى معى إن حان حينى تجاربى وما نلتها الا بطول عنائى
ويحزننى ألا أرى لى حيلة لاعطائها من يستحق عطائى
إذا ورث الجهال أبناءهم غنى وجاهاً ، فما أشقى بنى الحكماء

ثم قدر له أن ينجو من هذا الشلل ، وأن يتماثل للشفاء ، وأن يعود الى مراجعة المصحف الشريف الذى تطبعه وزارة المعارف على رسم مصحف عثمان ابن عفان ، و بينما هو بين الأمل واليأس : الأمل فى أن يعيش بضعة أعوام فوق الخامسة والستين حتى يتم بعض مشروعاته العلمية والأدبية ، واليأس من حياة أصابته فى نجله الكبير الذى سيق الى السجن بين شباب الثورة الوطنية

بينما هو كذلك اذ بنبراس حياته الساطع ، وبهجة نفسه اليانعة ، وزهرة قلبه الباسمة « باحثة البادية » تشكو الداء ، فيهلع « الوالد » ، ويرتاع لهذه لهذه الشكوى فى هذه المرة ارتياعاً لم يعهده من قبل . وكأنه أحس الخطر ، ورأى بعاطفة الأبوة التى تكشف فى بعض الأحيان سجف الغيب أن مرضها

هذا هو مرض الموت ، وأن مصابه ومصاب الشرق العربى فيها عما قريب ، وأنه قدر عليه وهو الوالد الحنون أن يفجع فى أعز أبنائه اليه ، وأكرمهم لديه ، وأكثرهم عطفاً فى شيخوخته عليه ، وأن يشهد هذه الكارثة التى تهد كيان الآباء ، وأن يحمل آلام هذا الجرح الذى لا يندمل الا بالموت

لكأن الأيام نقمت من « حفنى » فضله على اللغة العربية ، ونبوغه فى الكتابة والشعر ، وما وهب من ذخر ثمين ، وفخر كبير فى كريمته ملك « باحثة البادية » التى كان لصوتها صدى فى ارجاء الشرق ، فأرادت ان تديل منه ، فأصابته فى شيخوخته بسجن ابنه ، ثم كانت الطامة الكبرى بفقد كريمته العزيزة

عادت صحته الى الضعف ، وشعر بالمرض يرتد اليه ، ولكنه استقوى ، ونشط الى علاجها ، ومنى نفسه ، واستهان بصحته ، وأتعب جسمه لتوفير راحتها ، واجهد قلبه لتعجيل الشفاء اليها

فعل ما فى استطاعة أب رحيم رقيق العاطفة ان يفعله ، لكن ماذا تجدى الرحمة امام قسوة القدر ، وماذا تفيد الرقة فى خشونة الخطب المدلهم ، والمصاب الفاجع

ساءت صحة « ملك » ، وسارت الى الخطر ، ثم ماتت . فكان موتها نذير موته ، وكان مصابها داعية مصابه . فلم يقو على حمل الخطب الشديد ، واعتكف فى بيته مكلوم النفس ، مسلوب القلب محطم الأعصاب ، زاهداً فى الحياة ، ذاهلا عن كل شىء الا عن ذكر ملك ، وبكاء ملك ، والتلهف عليها آناء الليل واطراف النهار

وكانت حفلة تأبينها فى الجامعة المصرية القديمة ، ورأس الحفلة اسماعيل صبرى باشا ، وذهب حفنى بك محمولا اليها ، لفرط ما اصابه من ضعف وهمّ ومرض . واستمع الى كلمات المؤبنين فى حزن وألم ، حتى اذا جاء حافظ ابراهيم الى قوله :

وتركت شيخك لا يعى   هل غاب زيد او حضر
ثملاً ترنحه الهمو   م اذا تحامل او خطر

كالفرع هزته العوا صف فالتوى ثم انكسر
او كالبناء يريد ان ينقض من وقع الخور
قد زعزعتـه يد القضا ء وزلزلته يد القدر

حتى اذا جاء حافظ الى هذا القول فى رثائها ، بكى حفنى بك ، واشفق عليه الحاضرون من شدة اللوعة والألم العظيم . ثم آب بعد انتهاء الحفلة الى بيته ، ودخل مضجعه واخفى رأسه تحت الغطاء وبكى بكاء مراً ، واخذ ينشد بعض الأبيات بنشيج مؤثر . ثم فقد رشده بضعة ايام . وكان يوم الثلاثاء ٢٦ فبراير سنة ١٩١٩ فأسلم روحه الى بارئها ، ولحق بكريمته كأنهما كانا على ميعاد

كانت الثورة الوطنية وقتئذ متأججة ، فلم تتح فرصة لتأبينه ، وبقى بلا تأبين حتى الآن . ولم يذكر فى قصيدة رثاء الا فى قصيدة حافظ فى ذكرى الأستاذ الامام فى الحفلة التى أقيمت بالجامعة المصرية سنة ١٩٢٢ اذ قال :

هدأت نيران حزنى هدأة
وانطوى « حفنى » فعادت للشبوب

فتذكرت به يوم انطوى
صادق العزمة كشاف الكروب

محمد بك فريد

— لا يا سيدى ، كلا ، انى افضل الموت فى السجن على ان اطلب العفو من الخديو

— سموه هو الذى اوحى بذلك ، ويشق عليه ان تسجن

— اشكر له هذه العاطفة ، ولا اقبل منه عفواً

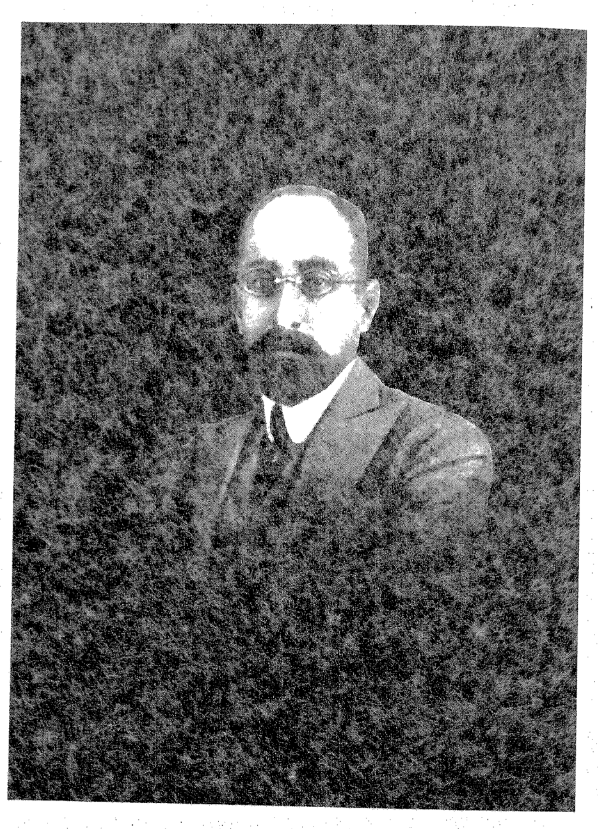
— فلتطلب العفو السيدة حرمك

— انها لو فعلت ذلك ، لانقطع ما بينى و بينها . . !

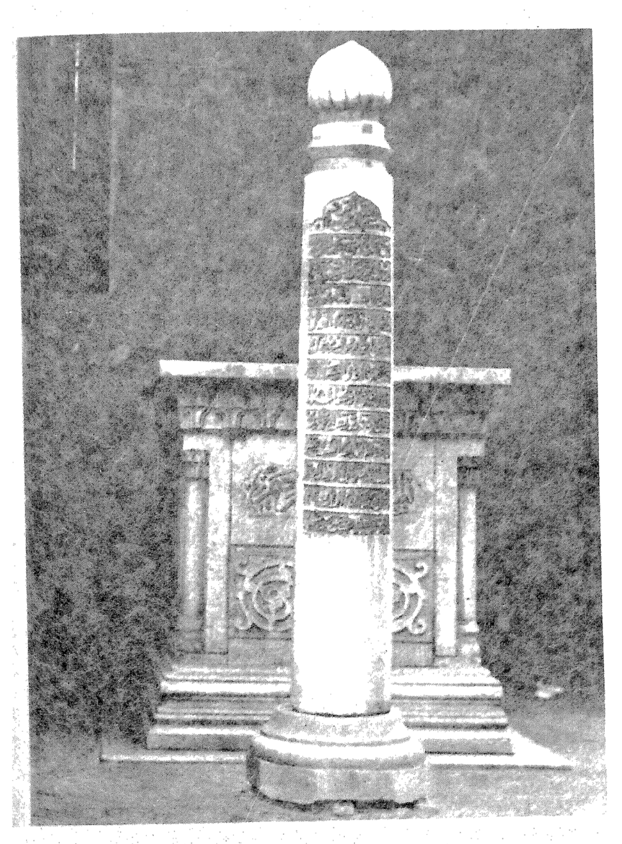
و بعث محمد فريد بك من سجنه الى عقيلته يهددها بالفراق إذا هى التمست العفو عنه من الخديو ، وكان وقتئذ محكوماً عليه بالسجن ستة اشهر لتقديمه ديوان « وطنيتى » للأستاذ على الغاياتى ، هو والشيخ عبد العزيز جاويش ، وكان الديوان طعناً سياسياً فى الخديو السابق ، فصادرته الحكومة ، وفر ناظمه ، وقبض على فريد بك ، والشيخ جاويش ، وحكم عليهما بالسجن

كان ذلك سنة ١٩١٠ ، وكان الحزب الوطنى اقوى الأحزاب المصرية ، وكان متأججاً بنار الوطنية ، ورئيسه قدوة سامية فى الاخلاص والتضحية . وفى سنة ١٩١٢ عقدت الجمعية العمومية لهذا الحزب اجتماعها السنوى ووقف محمد فريد بك خطيباً فيها ، فندد باقتراح اللورد كتشنر الذى يرمى الى انشاء صندوق للتوفير خاص بالفلاح المصرى ، فاعتبرت الحكومة ماجاء فى هذه الخطبة مخالفاً للقانون ، وطلبته النيابة للتحقيق معه

لكن بعض اعضاء اللجنة الادارية للحزب رأوا ان سجنه قد لا يقتصر فى



محمد بك فريد رئيس الحزب الوطنى فى أيامه الاخيرة



قبر المرحوم محمد بك فريد رئيس الحزب الوطنى



اسماعيل صبري باشا



مصطفى لطفى المنفلوطى

هذه المرة على مدة وجيزة ، فحتموا عليه ان يهاجر من القطر المصرى ، ففر متنكراً الى اوربا تاركا أسرته

سافر فريد بك الى اوربا ، فساح بين عواصمها مدة يدعو للقضية الوطنية . وحضر كثيراً من المؤتمرات ، وحصل منها على قرارات هامة فى شأن استقلال مصر ، وأسس اثناء وجوده فى اوربا « جمعية ابى الهول » التى كان لها فروع فى كل عاصمة اوربية . ثم قصد الاستانة فقوبل فيها مقابلة حببت اليه الاقامة بها . ولقى من الحكومة العثمانية كل ترحيب وتكريم . وذات يوم دعى لمقابلة الصدر الأعظم ، فلما كان فى مجلسه قال له :

— إن جلالة السلطان يريد أن يكافئك على خدماتك الاسلامية والوطنية ، ويعرض عليك ان تختار لنفسك منصب وال فى إحدى ولايات الدولة

فقال فريد بك :

— إرجو ان ترفعوا شكرى لمولاى السلطان ، وأن تبلغوه اعتذارى عن قبول هذا المنصب

— لماذا ، وانت حائز ثقة المابين ؟ !

— إننى يا سيدى لم أخرج من بلادى للبحث عن وظيفة ، وإنما خرجت لأجاهد لخدمتها ، واسعى لتحقيق امانيها ، وسأبقى كذلك إلى أن أموت

واستأذن من الصدر الأعظم الأمير سعيد حليم ، وانصرف . وكان الأمير سعيد له مطامع فى عرش مصر منذ زمن بعيد ، واراد ان يستعين بفريد بك فى تحقيق اغراضه ، فلما رآه معتصما بمصريته ، ووجد ان خصومته للخديو لم تؤثر فى إخلاصه لعرشه ، جعل يتحرش به ليجبره على الخروج من الاستانة ، فبعث اليه يأمره أن ينزع من جاكتته شارته الوطنية التى كان مرسوماً عليها أبوالهول ، ومكتوباً عليها « مصر للمصريين »

رفض «فريد» بك أن يخضع لهذا الأمر ، فأرسل اليه الصدر الأعظم يهدده

بالنفى ، فأجابه برسالة قال فيها : « إن جميع البلاد تتساوى عندى ما دمت قد حرمت من الاقامة فى مصر »

وغادر بعد ذلك الاستانة الى سويسرا ، وكانت الحرب الكبرى وقتئذ تنفث أهوالها ، وتلتهم الاموال والاجسام بنيرانها ، فنزل بجنيف ، وانقطعت عنه نفقاته التى كانت تصل اليه من أهله كل شهر ، وعانى ضيقاً شديداً ، واضطر أن يسكن فى غرفة منفردة بالدور الخامس فى أحد المنازل ، وأخذ يقتصد فى قوته ، فكان لا يأكل إلا مرة فى اليوم ، ولا ينفك مع ذلك عن جهاده ، فتأثرت صحته ، وضعفت بنيته . وكان يشكو منذ شبابه مرض تشمع الكبد ، وعدم كفاية الكليتين للقيام بوظيفتهما ، فلما عانى ما عاناه فى غربته ، وعاش هذه العيشة الجافة التى لم يعتدها طول حياته ، أصيب مرض الاستسقاء الوبيل . وكان عليه أن يكف فى هذا المرض عن العمل ، وأن يعتكف للعلاج ، لكنه خاطر بصحته فى سبيل خدمة بلاده ، فكان يكتب المقالات ، ويحضر المؤتمرات ، ويقدم المذكرات . وقد حضر مؤتمر سويسرا وهو مريض ، وعرض عليه أحد الدكاترة الالمان أن يجرى له « عملية البذل » فأجلها . وهى عملية اخراج الماء الناتج من هذا المرض من بطنه

وكانت الثورة المصرية الاخيرة سنة ١٩١٩ ، وكان عليه أن يكون فى المقدمة ، لكن اشتداد المرض أقعده ، وانصاع لنصح الاطباء الذين ألحوا عليه فى اجراء « عملية البذل » فأجريت له عدة مرات ، وكان يخرج من جوفه كل مرة تسعة لترات من الماء . وفى احدى العمليات اخرج الاطباء سبعة عشر لتراً

***

مكث فقيد مصر العظيم يعانى آلام هذا المرض ستة اشهر ، وكانت سلواه الوحيدة التى يقضى بها وقته ان يفتت الخبز للعصافير الحائمة حوله

وفى نوفبر سنة ١٩١٩ اشتد عليه المرض ، وتقدم للخطر ، فرأى رفاقه ان لا بد من الاسراع بالسفر الى برلين لاجراء عملية جراحية بيد بعض مشاهير

الاطباء الالمان ، فسبقه اليها الدكتور محمد عبد العزيز عمران ، وانتظره فيها ، وكان مزمعاً ان يسافر مع صديقه اسماعيل بك لبيب بالطيارة ، لكن رداءة الجو اضطرته الى تفضيل القطار الحديدى ، فاجتمعا بالدكتور عمران ببرلين ، وكان الماء قد تجمع فى جوفه بكثرة ، فأجريت له عملية البذل عدة مرات . وكان الوقت بين كل مرتين قصيراً جداً ، فخارت قواه ، وأغمى عليه مراراً

ولما تنبه من اغمائه سأل من حوله :

— كيف حال مصر ؟

فقالوا : بخير

— وما هى أنباء الثورة الوطنية ؟

— حسنة جداً ، والمصريون متحمسون للمطالبة بحقوقهم ، والوصول الى حريتهم

— هل يقدر لى ان ارى مصر حرة مستقلة ؟

— نعم . وستعيش طويلامسرور القلب مغتبطاً بثمرات جهادك

— لا أظن . لا أظن . ان الموت يقترب منى ، وأرى نوراً يغمرنى ، وها هو ذا شبح أخى مصطفى يدعونى الى الرحيل !

— دع عنك هذه الاوهام ، فقد عهدناك قوى النفس جريئاً ، عظيم الآمال ، لا ينال منك الوهم ، ولا يؤثر فيك الخيال

— بل انى لأشعر بأنى سأقضى اليوم أو غداً . لا . لا أموت ، فانى أحب أن أرى مصر حرة مرفوعة الرأس بسيادتها بين الامم

— انت بعافية ، وسوف لا تموت

— أحقاً هذا ؟ !

— لقد طمأننا الطبيب ، وأكد لنا أنك ستبرأ من علتك ، وتعود الى كمال صحتك ، وستستأنف جهادك العظيم فى سبيل بلادك

— وماذا قال ؟ هل تنبأ بان تطول بى الحياة حتى تسعد مصر بالاستقلال

ثم عاد « فريد بك » الى اغمائه ، وطال به الاغماء ، فاضطر رفاقه أن يهزوه مراراً حتى تنبه . وكان هـذا الاغماء يعاوده ، فلا ينكشف عنه إلا إذا حركوه . وفى كل مرة يتنبه فيها يدور بينه وبينهم ذلك الحديث ويردد أمنية بلاده التى أفنى فيها ماله وصحته ، وضحى بكل عزيز لديه

أكلت ماله الحقوق وأبلى جسمه عائد من الهمّ عادى
لك فى ذلك الضنى رقة الرو ح وخفق الفؤاد فى العواد
علة لم تصل فراشك حتى وطئت فى القلوب والاكباد

وفى ١٥ نوفمبر تنبه من اغمائه ، فوجد حوله أصدقاءه ، فأجهش فى البكاء فجعلوا يخففون عنه مصابه ، ويطمئنونه على صحته ، فنظر اليهم ، وقال :

— وهل تحسبون انى أجزع من الموت ؟

— لا . ما عهدناك جباناً

— أجل . لست أجزع من الموت ، فان الموت حق لا بد منه ، ولكننى أجزع أن أموت قبل أن أرى مصر حرة مستقلة

وكان يعانى فى هذه الساعة سكرات الموت ، لكن هذه الامنية كانت برغم ذلك تجيش بنفسه ، وتتردد على لسانه ، وقد احتفظ بقواه العقلية الى آخر لحظاته

وقبل وفاته بقليل صحا صحوة أحيت آمال رفاقه فى شفائه ، لكنها كانت « صحوة الموت » فدعا من حوله ، وقال لهم :

« انى أنا وأولادى ، وكل عزيز عندى فداء لمصر . وقد قضيت بعيداً عنها سبع سنوات فاذا مت فضعونى فى صندوق ، واحفظونى فى مكان أمين حتى تتاح الفرصة لنقلى الى وطنى المحبوب الذى فارقته وكنت أود أن أراه قبل الممات»

ثم فاضت روحه فى غيبوبة شديدة من تلك الغيبوبات التى كانت تنتابه ، فكان لنعيه أشد وقع فى النفوس ، وقام رفاقه بوصيته ، فحنطوا جثته ، ووضعوها فى صندوق ، وحفظوها حتى أعيدت الى مصر

إسماعيل صبري باشا

— وددت يا حافظ لو انها كانت هى القاضية

— سلمت يا شيخ الشعراء ، ولا ذقت مرارة الموت

— لعلها أحلى من مرارة الوجود . . !

وابتسم حافظ ابراهيم ، وتفكه كعادته بين أصدقائه ، وقال لصبرى باشا :

— لقد كانت تلك الغيبوبة التى أصابتك من صدمة القطار « بروفة » !

— كنت أود ان تكون حقيقة ، فقد ذقت من بلاء الحياة ، ما هوّن علىّ عناء الموت ، وحبب الىّ الراحة الكبرى

ان سئمت الحياة فارجع الى الار ض تنم آمناً من الاوصاب
تلك أم أحنى عليك من الأم التى خلفتك للاتعاب
لا تخف فالمات ليس بماح منك الا ما تشتكى من عذاب
كل ميت باق ، وان خالف العنـوان ما نص فى غضون الكتاب
وحياة المرء اغتراب ، فان ما ت فقد عاد سالماً للتراب

فقال حافظ :

— لو لم يكن فى مدح الموت الا هذا البيت الاخير ، لكفانى اقتناعاً برأيك ولكننا يا اسماعيل باشا ما زلنا فى ربيع العمر . وما أرى هذه الصدمة التى أصابتك الا أخف صدمات الحياة

قال صدقت :

وجدت الحياة طريق المما ت ، وكل الى حتفه يسرب
ويعثر فيه الفتى بالشبا ب ويدلف بالعلة الاشيب

ويتعب بالزاد فيه الفقيـــــر وأهل الغنى بالغنى أتعب
ويشقى أخو الجهل فى جهله ويحرج بالعالم المذهب
موارد مشروعة للحيا ة فأى مواردها الاعذب

وكان اسماعيل باشا صبرى وقتئذ محافظاً للاسكندرية ، وقد سافر الى القاهرة سنة ١٨٩٧ ، فاصطدم القطار فى طريقه ، فأصيب برضوض ، وعرته هزة عصبية أفقدته الشعور نحو عشرين يوماً ، فلما أفاق لقيه شاعر النيل حافظ ابراهيم فهنأه ، فتمنى هو لو كان قد لقى فى هذه الغيبوبة أجله

وكان « صبرى » قد سئم الحياة ، واستخف بمتاعها ، وهو بعد لم يطو مرحلة الشباب ، فكان يكثر من ذم الدنيا وينعى الاطمئنان اليها ، والابتهاج لصفوها ، وما كان يضيق بالدنيا لمأرب أضاعه ، أو فشل أصابه ، فقد أدرك من مفاخرها ما يزيد فى طمع الحريص ، وظفر من مناصبها بما يغبط عليه ، ونال من بسطة الرزق ، ورغد العيش ، وفخر الشهرة حظاً تخلفت وراءه حظوظ الكثيرين . ولكنه كان رقيق الطبع ، دقيق الاحساس ، تؤلمه ومضة البرق اذا بدت فى غير أوانها ، وتجرحه خطرة النسيم اذا مرت فى غير موضعها ، فكان يضيق بالدنيا ، لأنه يضيق بأهلها ، ويتبرم بالحياة ، لانه يتبرم بضعف الاحياء ، ويثور على المجتمع لأنه ثائر على الاخلاق

غاض ماء الحياء من كل وجه فغـدا كالح الجوانب قفرا
وتفشى العقوق فى الناس حتى كاد رد السلام يحسب برا
أوجه مثلما نثرت على الاجـــداث ورداً إن هن أبدين بشرا
وشفاه يقلن أهلا ولو أد ين ما فى الحشا لما قلن خيرا

ثم يخاطب نجم « هالى » فيقول :

أنت نعم النذير يا نجم « هالى » زلزل السهل والرواسى ذعرا
ظن قوم فيك الظنون وقالوا آية أرسلت إلى الارض كبرى
ان يكن فى يمينك الموت فاقذفـــه شواظاً على الخلائق طراً

هل تلقيت من لدن خاذل البا غى وحامى الضعيف يا نجم سرا
أمحيط بكل شيء ومرد كل حى وتارك السهل وعرا
أغـداً تستوى الانوف فلا ينـ ظر قوم قوماً على الارض شزراً
أغداً كلنا تراب ولا مـ لك خلاف التراب براً وبحرا
أغداً يصبح الصراع عناقا فى الهيولى ، ويصبح العبد حرا
ان يكن كل ما يقولون فاصدع بالذى قد أمرت حييت عشرا

هذا ما كان لأجله يضيق بالدنيا ، ويستجير بالموت . وكان على رقته صارماً فى الحق . حدثنى المغفور له داود بركات أنه لمـــا كان فى ذلك الوقت محافظاً للاسكندرية استقدم الخديو عباس حلمى الثانى «ثوراً» من سويسرا ابتاعه بمبلغ كبير من المال ، وكان الحجر مقرراً على الحيوان القـادم من الخارج فى عرض البحر حتى يثق الاطبـاء بخلوه من الأمراض ، فحجر اسماعيل باشا على الثور ، ولم يأذن بانتقاله الى البر ، فأرسل اليـه الخديو ليسمح بنقل الثور بحراً الى قصر المنتزه حيث يقضى أيام الحجر المقررة ، فرفض ذلك ، وقضى الثور أيام الحجر فى الميناء كسائر الحيوان فغضب الخديو ، و بعث احد رجاله يلومه لمخالفته إرادة سموه فـكان جوابه :

« أنا لم أخالف إرادة سمو الخديو بهذا الرفض ، لأنه هو الذى أصـدر أمره بالحجر على الحيوان القادم من الخارج ، ولسموه أن يصدر أمراً آخر بفك الحجر وأنا أطيعه »

لـكن هذا الجواب لم يكن ليقوم اعتذاراً عن هـذه المخالفة . وما لبث اسماعيل باشا صبرى أن نقل وكيلا لنظارة الحقانية

وعلى الرغم من صلابته فى الحق ، وتشاؤمه فى الحياة ، وتحديقه كثيراً فى الموت ، كان حلو الدعابة ، لطيف المزاح . حدثنى المرحوم احمد زكى باشا قال : « كان المرحوم الشيخ سليمان العبد ينظم فى كل مناسبة قومية ، وفى كل عيـد اسلامى تاريخاً ينشده أمام الخديو حين يقابل رجال الدين ، فجاءنى اسماعيل صبرى باشا

يوماً فى مناسبة من هـذه المناسبات ، وقد كتب تاريخاً من نظمه وقعه بامضاء الشيخ سـليمان ، وطلب منى أن أنشره فى احدى الجرائد الـكبرى ، فنشرته الجريدة ، و بعد أيام قابلنا الشيخ سليمان العبد فى الطريق ، فهنأه اسماعيل باشا بجودة « تاريخه » الذى نشر فى الجريدة ، واثنى على نظمه ، فتقبل الشيخ التهنئة شاكراً . . ! فغادرناه ونحن لا نـكاد نخفى ما عرانا من الضحك

« وكنت مسافراً معه من القـاهرة الى الاسكندرية ، فخطر له ونحن فى القطار أن ينظم قصيدة يشكو فيها « شركة كوك » الى « القنصل » على أسلوب الشيخ حمزة فتح الله مفتش اللغة العربيـــة بوزارة المعارف فى ذلك الوقت ، والمشهور بميله الى اسـتعمال الوحشى من الالفاظ ، والاكثار من الجناس فى نظمه ونثره ، فجعل اسماعيل باشا ينظم ، وانا اكتب حتى اتمها . وكان مطلعها :

يا أيذا « القنصـل » المزجى زواجره   صوب السفين وثوب السوس سربله
أشكوك كوكك كى ينكب عن نكب   إذ كان كلا ، وكل ملّ كلكله
أباتنى والجرشى حشوها ضجر   إن مس جنبى خشب الفلك قلقله

و بعد ما أتممها وقفنا فى صالون القطار ، ننشدها ونترنح كما يفعل أهل الاذكار ، و بينما نحن فى نشوة « الجلالة » وقد أحاطنا شبح الشيخ حمزة بهالته ، اذ بالقطار يقف على محطة العاصمة ، واذ بالخادم يفتح الباب ، فيجد « الجذبة » قد طارت بالألباب ، فيتقهقر مذعوراً ، و يغلق الباب بقوه ، فننتبه من الهيام ، ونغرق فى الضحك »

وضحك زكى باشا ضحكة عالية وهو يحدثنى عن هذه الواقعة بدار العروبة بالجيزة حتى سقط منه كتاب كان بيده ، ثم قال :

« وفى اليوم التالى كتب اسماعيل باشا القصيدة مقلداً خط الشيخ حمزة فتح الله ، و بعث بهـا الى جريدة « المقطم » فنشرتها بامضاء الشيخ ، فلما صدرت واطلع عليها الشيخ حمزة عجب ، وقال لأصدقائه :

— هذا الـكلام كلامى ، ولـكنى ما قلته . . !

وذهب الى ادارة المقطم ، وقابل رئيس التحرير ، وأخبره بذلك ، فأخرج له الورقة المكتوبة فيها القصيدة فقال :

— وهذا الخط خطى ، ولكنى ما كتبته . . !

واضطر رئيس تحرير المقطم ان ينفى فى اليوم التالى نسبة القصيدة اليه

وكان اسماعيل صبرى لا يسبيه من الحياة إلا جمال المرأة ، وكان يروح عن نفسه متاعب الدنيا بالتغزل فيها . وكانت قصيدته « تمثال الجمال » أحسن ماقيل فى الغزل الذى يتمشى مع آداب العصر ، وقد ترجمت الىاللغة الفرنسية ، وكانت الحياة عنده بدون التأمل فى المرأة لا تساوى شيئاً ، بل لو مرت برهة من العمر لا يشعر فيها بالحب ، فانها تستوجب منه الاستغفار :

أبثك ما بى فان ترحمى ... رحمت اخا لوعة مات حبا
واشكو النوى ما أمر النوى ... على هائم ان دعا الشوق لبا
وأخشى عليك هبوب النسيم ... وان هو من جانب الروض هبا
واستغفر الله من برهة ... من العمر لم تلقنى فيك صبا

وكان يعجب بالأديبة النابغة « مى » ويتردد على صالونها فى أواخر حياته . وكان يحرص على شهود مجلسها يوم الثلاثاء ، وسافر يوماً إلي مدينة الزقازيق ، واضطر للتأخر لبعض حاجته ، فبعث اليها يوم الاثنين بهذين البيتين :

روحى على بعض دور الحى حائمة ... كظامىء الطير تواقاً الى الماء
ان لم أمتع بمى ناظرىَّ غداً ... أنكرت صبحك يا يوم الثلاثاء

وبعث اليها يهنئها فى أحد الأعياد بغرة العام الجديد ، فقال :

يا غرة العام جوزى الافق صاعدة ... الى السماء بآمال المحبينا
انى سألت لك الأيام صافية ... يا مى قولى معى بالله آمينا

وأصيب فى أواخر حياته بمرض القلب ، فكان ينتابه كثيراً ، ويمنعه من القراءة والتفكير . وتشتد به الآلام فيشتهى ضجعة القبر ، ويستغيث بالموت ، ويستعجله ، ويلومه لتوانيه

يا موت خذ ما أبقت الـ أيام والساعات مـنى
بينى و بينـك خطوة ان تخطها فرجت عنى

وغلب عليـه التصوف فى شعره حين دنا أجله ، وأحس قرب نهايته ، فـكانت أبياته تشف عن الايمان العميق والطمع فى عفو الله ، والتخلص من أدران الدنيا ، والانصراف الى الحياة الاخرى

يا رب أين ترى تقام جهنم للظالمـين غـداً وللاشرار
لم يبق عفوك فى السموات العلى والارض شبراً خالياً للنار
يا رب أهلنى لفضلك واكفنى شطط العقول وفتنة الافكار
ومرالوجود يشف عنك لكى أرى غضب اللطيف ورحمة الجبار
يا عالم الاسرار حسبى محنة علمى بأنك عالم الأسرار

واستمر شيخ شعراء العصر يعانى داء القلب حتى أذاب نفسه ، فعادت لا تهفو لشيء ، ولا تنشط لقول الشعر الا ما كان خاصاً بالموت ، فأكثر ــ وهو المقل ــ فى النظم فيه

وكان شهر مارس سنة ١٩٢٣ وقد بلغ التاسعة والستين ، فأصيب بذبحة صدرية ثقلت عليه ، وعانى فيها آلاماً مبرحة ، وساعدت الشيخوخة وداء القلب هذه العلة القاسية ، فنالت من جسم الشيخ الضعيف ، واستبدت بصدره ، وتحكمت فى أمره ، وتوانى الموت فى اقدامه ، فضاعف هذا التوانى من آلامه . ومكث أياماً معلق النفس ، معذب الجسم . وزاره حافظ ابراهيم ، فقال له : « ألم أقل لك منذ ست وعشرين سنة بعد صدمة القطار :

« وددت يا حافظ لو أنها كانت هى القاضية

« فقلت لى : « سلمت .. » فأين منى السلامة اليوم ، وقد حملت عناء الحياة الطويل ، وعناء الداء الوبيل ، وانا أقضى الآن على فراشى كما يقضى الذبيح »

ثم سكت ، وانتابته سكرات الموت فذهب فى ٢١ مارس مبكياً من دولة الفضل والادب

مصطفى لطفى المنفلوطى

.. وصاح بلهجة صعيد مصر :

« آه . . آه . . يا بوى . . ! »

ثم التفت إلى صديقه ، وابتسم ولم يتكلم ، وكانت هذه الآهة آخر كلماته ، وختام آهاته فى الحياة ، وكأنما كتب عليه أن يختم حياته بالتأوه والأنين ، كما عاش متأوهاً من مآسى الوجود ، شادياً بأنات البائسين ، وزفرات المتوجعين

وأدار « السيد مصطفى » بعد هذه الآهة وجهـــه الى الحائط ، وهو على فراشه ، وكان صبح عيد الأضحى قد أشرقت شمسه ، ودبت اليقظة فى الأحياء ، ولـكن الموت كان يدب فى هذا الوقت الى جسم الأديب فى هدوء وخشوع ، فلم يتحرك فيه طرف ، ولم تنتفض منه يد ، ولم تنطفىء لوجهه بهجة ، ولم تذبل له عينان ، ولم تلم به وحشة ، أو يخيم عليه من الفناء ظلام

بل سكن سكوناً بليغاً كسكون الساعة عند نهايتها ، وذابت أنوار نفسه فى كأس الأبدية ، كما تذوب الأشعة فى الجو عند غايتها . واستمر صديقه الأستاذ محمد حسنى الجالس بجواره لا يدرى أن مصطفى قد بارح عالم البؤساء الى عالم السعداء ، وارتفعت روحه مطمئنة الى نعيم الخلد ، بعد ما عانت آلام الأرض ، فناداه :

— يا سيد مصطفى . . !

فلم يجب النداء ، فعاد يناديه :

— يا سيد مصطفى . يا سيد مصطفى

فلم يسمع الدعوة ، ولم يجب النداء

واطمأن السيد مصطفى للموت ، وما كان يطمئن اليه يوماً فى حياته ، ولا يأنس ساعة بذكره ـ على الرغم من ذمه للحياة وتصويره لجوانبها السوداء . فاذا ذكر المرض أو الموت ، أجفل وفزع من ذكرهما ، وضرع الى الله أن يؤخر يومه ، وينسأ فى أجله ، ويديم له الصحة ، ويسبغ عليه العافية

وما كان فزعه من المرض أو الموت لجبن فى نفسه ، أو لحرص على هذه الحياة الفانية ، بل كان يجهل من حظه فى الآخرة ما يجعله يقف موقف المتردد الحائر ، ويخشى على مستقبل أولاده الصغار خطوب الزمان ، وشقاء الأيام

وقد زاد خوفه من المرض والموت بعد الأربعين ، وكأنما كان يتنبأ بنهايته حين كتب آخر مقالة فى آخر جزء من النظرات بعنوان « الاربعون » ، قبل وفاته بتسع سنوات . فقال :

« الآن وصلت إلى قمة هرم الحياة ، والآن بدأت أنحدر إلى جانبه الآخر ، ولا أعلم هل أستطيع ان أهبط بهدوء وسكون ، حتى أصل إلى السفح بسلام ، أو أعثر فى طريقى عثرة تهوى بى إلى المصرع الاخير هوياً

« سلام عليك أيها الماضى الجميل لقد كنت ميدانا فسيحاً للآمال والاحلام ، وكنا نطير فى أجوائك البديعة الطلقة غادين رائحين ، طيران الحمائم البيضاء فى آفاق السماء ، لا نشكو ولا نتألم ، ولا نضجر ولا نسأم ، بل لا نعتقد ان فى العالم هموما وآلاما . وكان كل شيء فى نظرنا جميلا حتى الحاجة والفاقة

« . . ما أنا بآسف على الموت يوم يأتينى . فالموت غاية كل حى ، ولكننى أرى أمامى عالماً مجهولا ، لا أعلم ما يكون حظى منه ، وأترك ورائى أطفالا صغاراً ، لا أعلم كيف يعيشون من بعدى ، ولولاهما أمامى ، ومن ورائى ، ما باليت أسقطت على الموت ، أو سقط الموت علىّ »

تلك هى النبوءة التى تنبأ بها « المنفلوطى » حين بلغ الأربعين ، وذلك ما كان يخافه من الموت ، فلولا صبية صغار ، ولولا مآل مجهول ، ما جزع ولا تشاءم من هذا المصير ، ولا أخفى ما كان يصيبه من داء فى بعض الأحيان عن أولاده

وزوجته . وقد أصيب بشلل بسيط قبل وفاته بشهرين فكتم آلامه عن أهله وأصدقائه ، ولولا ثقل أصابه فى لسانه عدة أيام ما علم أحد بمرضه ، ولا استدعى طبيباً لعيادته ، لأنه كان لا يثق بالأطباء ، ورأيه فيهم انهم لا يغنون عن القدر ، ولا يدفعون نازلة القضاء ، ولعل ذلك هو السبب فى عدم اسعاف التسمم البولى الذى أصابه قبل وفاته بثلاثة أيام

فقد كان فى صحة جيدة ، ونشاط تام ، لا يشكو علة ، ولا يتململ من ألم ، وفى ليلة الجمعة السابقة لوفاته كان يأنس فى منزله الى اخوان يسامرهم ويسامرونه ، ويفاكههم ويفاكهونه ، ويناقشهم ويناقشونه فى الأدب والموسيقى والسياسة والاجتماع ، إذ كان يعقد هذه المجالس فى كثير من الليالى ، ويفد اليه بعض أصدقائه من الأدباء والسياسيين والموسيقيين ، حتى إذا قضى سهرته معهم انصرفوا الى بيوتهم ، وانصرف هو الى مكتبه ، فيبدأ عمله الأدبى فى نحو الساعة الواحدة بعد نصف الليل

وفى الساعة الثانية عشرة من تلك الليلة انصرف أصدقاؤه كعادتهم ، وبقى يتصفح بعض الكتب ، وانه لكذلك إذا به يحس بتعب فى أعصابه ، وضيق بسيط فى تنفسه فأوى الى فراشه ، وأراد النوم ، فاستحال عليه ، ومكث يعانى ألماً فى الكلى ، وضيقاً فى الرئتين

وأقبـــل صبح السبت ١٢ يوليه سنة ١٩٢٤ واستيقظ الأحياء على أرقه الطويل ، واستأنفوا حياة جديدة ويوماً جديداً ، واستأنف هو ألماً ممضاً ، وضيقاً شديداً . واستمر فى ذلك يومه يعانى الاهوال ، ويسوقه القضاء الى النهاية ، ويحثه القدر الى بلوغ الغاية ، فى عذاب أليم ، وبلاء جسيم

ودعى له الطبيب ، وكان احتباس البول قد سمم دمه ، وانبثت جراثيمه فى أنحاء جسمه ، فأصيب بذبحة صدرية ، فصار يتلوى على فراشه يميناً وشمالا ، جلوساً ونوماً

حتى اذا جاء المساء ــ وكان مساء وقفة عيد الاضحى سنة ١٣٤٢ ــ اشتد

ضيقه ، وساءت حالته ، ويئس طبيبه ، وثقلت العلة عليه ، فجعل يضع رأسه مكان قدميه ، وقدميه مكان رأسه ، ويئن ويتألم ، ويستجير من أوجاعه ، ويلتمس الشفاعة برقة أدبه ، ويرتجل الضراعة لرحمة ربه . ولم تسكن له حركة ، ولم تهدأ له نفس ، أو يغف له طرف ، أو يستقر به مضجع

وكان بجواره فى تلك الليلة صديقه الأستاذ محمد حسنى يسامره ، ويخفف عنه بالحديث ما يعانيه من تعب ، ويهون عليه بالصبر ما يلاقيه من شقاء

وكان « السيد مصطفى » قبل ذلك بأيام قد اتفق مع صديقه المرحوم حسن أنور ، وبعض اخوانه من هواة الموسيقى على أن يحضروا اليه فى ليلة الثانى من عيد الاضحى بمعازفهم وأعوادهم ليحيوا تلك الليلة فى التمتع بنغمات الموسيقى

وفيما كان رحمه الله يعانى الذبحة الصدرية ، ويغالب الموت ، والموت يغالبه التفت الى صديقه وقال:

— أحقاً اننا سنحيي ليلة الثانى من العيد مع أنور واخوان أنور

قال صديقه :

— نعم ، وستكون فى صحة جيدة

فهز السيد مصطفى رأسه ، وقال :

— فى صحة جيدة ! . . أتعنى . . !

ثم سكت وانتابته الذبحة ، وألحت فى ضيقها ، وتفاقمت آلامها ، فكان يصارعها وتصارعه ، ويجالدها وتجالده ، حتى اذا ضعفت مقاومته ، وانهارت قوته ، استسلم للموت ، وصاح بلهجة أهل صعيد مصر :

« آه . . آه . . يا بوى . . ! »

ثم التفت الى صديقه وابتسم ، ولم يتكلم . ودعاه صديقه مراراً ، فلم يسمع الدعوة ولم يجب النداء ، فظن انه قد نام ، فأشفق عليه من اليقظة ، لأنه قضى الليلة الماضية فى أرق شاق . وكف عن النداء . وهنا دخلت سيدة عجوز لها خبرة بمثل هذا الموقف الفاجع ، فنظرت الى « السيد » وأمسكت بيده وقالت

للصديق : « أسمعك تنادى الرجل عدة مرات ، وهو ميت » !

فتنبه الصـــديق من غشيتة ، وكأنما كان الموت يخادعه فى صديقه ، وصاح وصاح من بالمنزل : « وامصيبتاه » ، وصرخ اطفاله : « وا أبتاه »

وبانت بالمنفلوطى المنية ، فبانت عن عشاق أدبه هذه العبرة التى كان يزجيها الى النفوس بعبراته ، وتلك المتعة التى كان يهديها الى القلوب بنظراته ، وبان الانس الشامل الذى ظلل كل قارىء لـكتبه ، والخلق الـكامل الذى تجلى فى سيرته وأدبه ، وذابت العاطفة الرقيقة التى لا تباريها رقة السلافة ، والنفس السامية الصافية التى لا تحكيها خفة النسيم ولا صفاء الماء ، وكانت للعاشقين برداً وسلاما ، وللبائسين عطفاً وحنانا ، ولليائسين عزاء وسلوانا

رحل ذلك كله فيا عدا ما بقى من آثاره ، وغاض ذلك النبع الفيـاض ، وكان منهلا عذباً لـكل قارىء ، ومورداً حلواً لـكل متأدب ، وانطفأت تلك الجذوة التى كانت تتقد أسى وألماً للمساكين ، وتلتهب حزناً ولوعة للمحبين ، ورقد هـذا القلم الذى طالما سهر الليالى ، فـكم من عبرة أسالها ، وكم من رأفة استثارها ، وكم من نظرة دبجها ، وكم من رواية جال فيها ساجماً بين أفنان البيان، يقطر ذوبا من القلب ، وصوباً من النفس ، وفيضاً من الجمال

طوى الموت ما بين المنفلوطى و بين الناس على أثر الاعتداء على الزعيم سعد زغلول ، فلم تذكره أفواه المؤبنين ،ولم يشيعه آلاف المشيعين ممن يعجبون بأدبه ، و يشيدون بنبوغه وفضله

اخترت يوم الهـول يوم وداع	ونعاك فى عصف الرياح الناعى
هتف النعاة ضحى فأوصد دونهم	جرح الرئيس منافذ الاسماع
من مات فى فزع القيامة لم يجد	قدماً تشيع أو حفاوة سـاعى

لـكأن هذه الحمائم الساجعة فى رياضها ، وهذه الازاهر الباسمة على أفنانها ، وهذه الآرام الراتعة فى فيافيها ، وهذا النسيم المختال بخطراته ، المدل بلماته ، وقد سمعت بموته ، وتحطيم قيثـارته ، فوجمت الحمائم ، وذوت الازاهر ، واعتقلت

الفجيعة فيه الآرام ، فسقطت شجية بخطبه فى يوم شغل الناس فيه باصابة « سعد » فنسوا كل شىء حتى هذا المصاب العظيم ، واستهانوا بكل خطب حتى هذا الخطب الادبى الجسيم ، فحمل الهول عنهم تلك الطيور « الوفية » التى طالما ناجاها ، وتلك الأزهار الندية التى طالما استوحاها ، وتلك الظباء الرشيقة الآسرة التى تحاكى أسلوبه فى رشاقته وسحره وأسره للقلوب

وقد قال فى آخر نظراته يودع الشباب بل يودع الحياة :

« ليكن ما أراده الله . أما ما أمامى ، فالله يعلم أنى ما ألمت بمعصية إلا ترددت فيها قبل الالمام بها ، ثم ندمت عليها بعد وقوعها ، ولا شككت يوماً من الأيام فى آيات الله وكتبه ، ولا فى ملائكته ورسله ، ولا فى قضائه وقدره ، ولا أذعنت لسلطان غير سلطانه ، ولعظمة غير عظمته . وما أحسبه يحاسبنى حساباً عسيراً على ما فرطت فى جنبه بعد ذلك

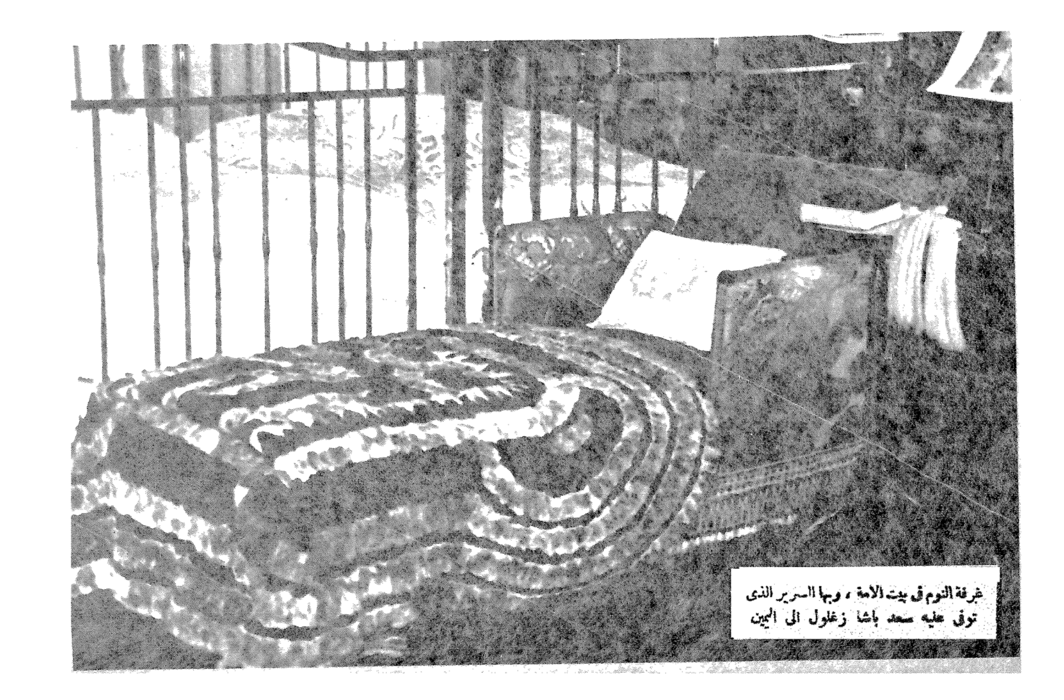
« وأما من ورائى ، فالله الذى يتولى السائمة فى مرتعها ، والقطاة فى أفحوصها ، والعصفور فى عشه ، والفرخ فى وكره ، سيتولى هؤلاء الأطفال المساكين ، وسيبسط عليهم ظله ورحمته واحسانه

« وداعاً أيها الشباب ، فقد ودعت بوداعك الحياة . وما الحياة الا تلك الخفقات التى يخفقها القلب فى مطلع العمر ، فاذا هدأت ، فقد هدأ كل شىء ، وانقضى كل شيء

« أيا عهد الشباب وكنت تندى على أفيـاء سرحتك السلام »



سعد زغلول باشا فى أخريات أيامه



غرفة النوم فى بيت الأمة ، وبها السرير الذى توفى عليه سعد باشا زغلول الى اليمين



جنازة الزعيم الاكبر سعد زغلول



حافظ بك ابراهيم

سعد زغلول باشا

— إنى يا صفية لأخشى الساعة الواحدة بعد منتصف الليل

— دع عنك هذا الوهم يا سعد ، فأنت بخير

واستولى على سعد قبل وفاته بيوم شعور قوى بأنه سيموت فى هذه الساعة ، فقال لأم المصريين :

— لقد كنت بالأمس أحتضر ، وما أظن إلا أننى ميت !

— إذا كانت حالتك قد اشتدت بالأمس فى مثل هذه الساعة ، فلا تظن أنها ستشتد الليلة

— لكنى أخشاها ، وأشعر بأنى ملاق عما قريب نهايتى

— إنك لم تخش فى حياتك شيئاً حتى نيران المدافع ، وحبل المشنقة ، ولقد سجنت ونفيت وعذبت ، فما وهنت ولا جزعت ولا شكوت ، ولا انثنيت عن القيام بواجبك ، ولا قصرت فى حق أمتك . ولقد كنت تطوى الليل سهاداً فى جهادك ، وكنت أخشى على صحتك من هذا السهاد ، فألح عليك فى النوم ، فتأبى ، وتلح علىّ أنت أن أذهب إلى فراشى ، وتقول : « دعينى دعينى ، فان فى عنقى واجبات أمة لا أستطيع أن أتخلى عنها حتى لو داهمنى الموت » فمالى أراك الآن تخشى الساعة الواحدة . . !

— لست أخشى الموت يا صفية ، ولا آسى على الحياة ، فالحياة أقل من أن يأسى عليها المرء ، ولكنى أخشى على الامة

ثم تمتم سعد ببعض كلمات ، وتناول ساعته فنظر اليها ، وقال :

— الساعة الآن التاسعة

ووضعها على الفراش بجواره . وكلما مضت مدة تناولها ونظر فيها نظرة ، وأعلن الوقت بصوت مرتفع فكان يقول :

— تسعة وربع . . تسعة ونصف . . عشرة إلا ربع . . عشرة

وبقى كذلك يحسب الوقت ، ويدق نبضه مع دقات الساعة فى هذه اللحظات العصيبة التى ما كانت لتكون شيئاً فى حياة أحد ، لولا أنه سعد الذى ما هاب يوماً شيئاً ، ولا اكترث لهول أبداً ، ولا حسب لمحذور وقتاً ، ولا دفعه الوهم إلى أن يعد لحظات حياته الاخيرة . وهو الذى طوى الزمن طياً فى العمل والجهاد ، واستخف بالحياة فى سبيل الكرامة والمجد ، لا يعرف راحة لنفسه ، ولا حساباً لوقته ، ولا عدداً للسنين والايام

ونام انتباهه بعد قليل ، فأخذته سنة من النوم ، فأشفقت عليه أم المصريين من هذا التقدير والحساب ، فاستلت الساعة من جانبه ، وكانت الثانية عشرة ، فأدارت عقربها إلى « الثانية »

وبعد مدة تنبه « الرئيس » فتناول ساعته ، ونظر اليها ، فوجدها الثالثة ، فالتفت إلى أم المصريين قائلا :

— ماذا ؟ ! . . أنا ما أزال أملك حواسى ، فمن المحال أن تكون الساعة « الثالثة » الآن

وكان بيد أم المصريين ساعة فخشيت أن يطلب منها الاطلاع على ساعتها ، فأدارت ظهرها ، وتظاهرت بنقل بعض الأثاث ، وفى هذه الحركة أرادت أن تدير ساعتها ، فأدرك سعد ما تريد ، فقال لها :

— لا . لا . أنا رايح . . !

فقالت أم المصريين :

— وانا اروح معاك

فقال لها :

— لا . خليك انت . . !

كان الزعيم الخالد فى سنواته الأخيرة تنتابه أربعة امراض : مرض السكر ، ومرض الربو ، ومرض الزلال ، ومرض تصلب الشرايين ، فكانت قوة نفسه تتغلب على ضعف جسمه ، فلا يكترث لهذه الأمراض ولا يعنى بها . وأول شروط العناية الراحة ، فلم يأخذ منها نصيباً كعادته طول حياته ، فكان يقذف بنفسه فى المقدمة كأقوى الشبان بنية وقوة وعزماً ، وقد وطد نفسه على الدفاع عن الحق ، مهما صادف فى هذا السبيل من مكروه ، فكان باسلا فى إقدامه ، جباراً فى نشاطه ، متدفقاً فى جهاده ، غيرمبال بمرض ، ولاساكن الى شيخوخة ، ولا خانع ليأس ، ولا منصرف عن جلاد ، ولا شاك من آلام مهما تزاحمت ، ولاخائف من أخطار مهما تراكمت . وكان الناظر الى نشاطه وعزيمته ، ونضارته وبهجته ، ووجهه المملوء قوة وحياة وجاذبية ، لا يخامره شك فى أنه صحيح البنية ، فولاذى البدن ، لا تستطيع أية علة أن تنفذ اليه ، ولا يمكن أى وهن أن يجرؤ عليه . حتى الموت نفسه ما كان الناس يظنون أن يثلم سيفه ، أو يقوض ركنه ، أو يعطل حركته ويخمد جذوته فى يوم من الأيام ، فقد ملأ سعد مصر حياة ، حتى لم يبق فيها للموت موضع ، وملأ البلاد أملا وقوة حتى لم يعد فيها لليأس والوهن مكان . فكيف يمر بخلد إنسان أن سعداً يمرض ، أو يضعف أو يموت

وكذلك تحمل سعد ما تحمل من تعب الجهاد ، فى صبر وجلد وبطولة ، وتفانى فى السعى لمجد أمته تفانياً بلغ حد التحدى لكل ضعف ، والتغلب على كل يأس ، والاستهانة بكل مرض . ومع هذه القوة العظيمة والاحتمال العجيب ، كان إذا وقف فى بعض الأحيان للخطابة استهلها بالاعتذار عن مرضه ، والشفاعة بضعف بنيته ، ثم يتدفق كالسيل العرم يملأ كل مكان ، ويدفع كل شىء فى طريقه ، ولا يستطاع له دفعاً . فكان السامع يعجب من قوى يحتج بالضعف ، ومن فتى يتظاهر بالشيخوخة ، ومن سليم البنية يدعى المرض

وفى ١٣ نوفمبر سنة ١٩٢٦ وقف فى ذكرى الجهاد الوطنى فخطب خطبة بليغة كانت آخر خطبة له بين الجماهير فقال : « يعز علىّ أن أرى منبر الخطابة

منصوباً ولا أستطيع له رقياً ، وأن أجد مجال القول واسعاً ، ولا أملك لساناً قوياً ، وأن أشهد سامعين منصتين ، ولا أجد صوتاً فتياً . . لقد أسمعكم الخطيبان قبلي ما كان يجيش به صدري ان اقوله ، وقد عبرا أحسن تعبير . . . وانه ليبهجنا كما يبهج كل مخلص لبلاده ان الله سبحانه وتعالى اعاد هذا العيد كما بدأه مظهراً لاتحاد الشعور وائتلاف القلوب ، فالكل مقبل عليه ، والكل مشترك فيه ، والكل شاعر بأن له نصيباً فى الجلال الذى يبدو عليه ، وفى المجد الذى يرمى اليه . . . »

واستمر يخطب . وكانت تلك الخطبة مع ما قدمها به من الاعتذار بالضعف والمرض من أبلغ خطبه

وفى ١٣ يوليه سنة ١٩٢٧ استجم فى بيته استعداداً لالقاء خطبته فى نهاية الدور البرلمانى ـ وكان وقتئذ رئيساً لمجلس النواب ـ وفى اليوم التالى حضر الجلسة الأخيرة ، فنزل عن كرسى الرياسة ، ووقف على منبر الخطابة ، وارتجل خطبة طويلة قال فيها : « جئت إلى هذا المكان ـ اى منبر الخطابة ـ لسببين : الأول لأنكم تسمعون منه بسهولة اكثر مما تسمعون من كرسى الرياسة ، والثانى لأنى اجد سروراً فوق المنبر لا اجده فى المكان العالى . يبث هذا السرور فى فؤادى امنى من التشويش (ضحك) وتمتعى بحسن إصغائكم . . »

و بعد ان خطب نحو ساعتين قال فى النهاية : « . . . والآن استودعكم الله جميعاً ، واسأله لكم الصحة والعافية . . »

وكانت هذه الخطبة هى « خطبة الوداع » . وقد ألقاها قبل موته بأربعين يوماً

* * *

سافر سعد باشا بعد ايام من تلك الخطبة الى قريته « مسجد وصيف » مع جمع من صحبه للاصطياف والتمتع بالرياضة والراحة بعد عناء العمل الطويل . ولكن القدر كان يلاحقه ، وكان يريد له الراحة الكبرى . وكأن الموت إذ

يئس من التغلب عليه بالأمراض الأربعة التى تنتابه شاء ان يستعين بغيرها لينفذ سهمه ، ويقضى فيه امره ، ففى احد الايام الاولى من شهر اغسطس لسعت اذن الزعيم بعوضة تحمل ميكروب « الحمرة » فشعر سعد بألم اللسعة ، فحك اذنه حكا بسيطا ، ولم يعبأ بها . ولكن الألم لم يذهب ، فعاد فدلك أذنه عدة مرات فاحمر مكانها . وفى اليوم التالى ارتفعت حرارته ، واستمرت فى الارتفاع ، ثم انخفضت وتحسنت صحته . وكان اليوم الثانى عشر من شهر اغسطس ، فعادت حرارته الى الارتفاع ، واشتد به الالم ، وظن الاطباء ان ارتفاع الحرارة من « الاكزيما . ! » وعولج على هذا الاعتبار ، لكن المرض انتشر فى جسمه فى حالة غريبة ، فضاق سعد به ، وقال :

« عجباً لهذه الاكزيما ، وسرعة تنقلها من جهة الى اخرى . لقد كنت أشعر بصحة جيدة ، وكنت فرحاً بضيوفى ونفسى مرتاحة اليهم ، فجاء هذا المرض ، فنغص على صحتى وفرحى ، وبدد راحتى »

وفى الخامس عشر من أغسطس استدعى الدكتور وديع لينان من القاهرة ، فقرر أن المرض الجديد هو « الحمرة » وأشار بعلاجها . ثم استدعى الدكتور عبد العزيز باشا اسماعيل فكشف عليه ، ورأى حاجته الى العناية ، وطلب أن ينتقل الى القاهرة ، فعارض بعض صحبه ، ووافق بعضهم

وكانت حجة المعارضين أن انتقاله وحرارته مرتفعة فيه خطر على صحته ، وتأثير فى نفسه بإشعاره بدنو أجله . ولما رأى سعد اختلافهم ، قال :

— فلنأخذ الرأى بالاقتراع

فكان الموافقون على الانتقال أكثر من المعارضين . وكان هو أحد المعارضين ، فوافق الأغلبية وهو يقول :

— انى لا أشعر بما يدعوالى انتقالى الى القاهرة ، ولكن الاغلبية قررت ذلك ، فالنظام يقضى بأن أذعن لرأيها

وفى يوم السفر الى القاهرة تحسنت صحته ، وأبى أن يذهب الى الباخرة محاسن الا ماشياً على قدميه

* * *

ركب سعد الباخرة ، وسارت به تتهادى على النيل فى هالة من الروعة والوقار المهيب

وكان النيل الخالد يتيه بمن يحمل من أمة عريقة فى رجل عظيم . وكان الوقت وقت الفيضان ، فكان خلود فوق خلود ، وسيل عارم لا يسبق ، فوق سيل منهمر يتدفق ، وفيضان من روح السماء ، فوق فيضان من ذرات الماء ، وموكب يتألق فوق النهر ، تحييه بابتسامها أفواه الزهر ، وجيل من الحياة والكرامة ، وعصر من النبوغ وفخر الزعامة ، فما أبلغه موكباً اجتمعت فيه معالم الحياة والجمال ، وتغايرت فيه معانى العظمة والبطولة والجلال

وكانت غرفة «الزعيم» بالباخرة محكمة النوافذ ، وكان الحر شديداً ، والرطوبة غزيرة ، والريح ساكنة ، فعرق كثيراً ، واضطر لتغيير ملابسه عدة مرات ، فأصيب بالتهاب رئوى لم يشعر به إلا بعد وصوله إلى منزله

ووصلت الباخرة أو وصل النيل بباخرة الزعيم إلى القاهرة ، وانتقل إلى البر مودعاً ، وكانت صحته جيدة ، فقال لمن حوله :

— أرانى اليوم فى صحة جيدة ، فلماذا تقلتمونى ؟ . .

ثم ركب إلى بيت الامة ، وصعد السلم فى نشاط ، ودخل غرفته . لكنه ما كاد يخلع ملابسه حتى شعر بالالتهاب الرئوى ، فاستراح وأخذ الاطباء يعالجونه . واجتمع على جسمه ستة أمراض : الأربعة الماضية ، ومرض الحمرة ، والالتهاب الرئوى . وارتفعت الحرارة ارتفاعاً غير عادى أقلق أطباءه ، ثم عادت فانخفضت وتحسنت صحته

وفى مساء الأحد ٢١ أغسطس استيقظ فى الواحدة بعد منتصف الليل ، وهو يعانى آلاماً فى المعدة ، وقيئاً شديداً ، وقد ارتفعت حرارته فوق الأربعين ، فأسرع

الاطباء لاسعافه ، وأوجسوا أن يكون هـذا العرض من سريان جراثيم الحمرة فى الدم ، فعادوا يقاومونها بما وسعه الطب من المعجزات

وكان صباح الاثنين فشعر « الزعيم » بتحسن بسيط ، واستمر فى هذا التحسن طول النهار ، حتى إذا أقبل المساء أوجس خيفة ، فقال لأم المصريين وهى جالسة بجواره فى نحو الساعة التاسعة :

— انى يا صفية لأخشى الساعة الواحدة بعد منتصف الليل

فقالت أم المصريين : « دع عنك هذا الوهم يا سعد ، فأنت بخير »

واستولى على الزعيم شعور قوىٌّ بانه سيموت فى هـذه الساعة . وأشفقت أم المصريين عليه من الوهم . . وطمأنته . .

* * *

ومرت تلك الليلة بسلام بعد نقاش ، وتنبؤ بالموت . وكان صباح الثلاثاء ٢٣ أغسطس سنة ١٩٢٧ فارتفعت الحرارة ، واستمرت فى ارتفاعها حتى بلغت الحادية والار بعين وثلاثة خطوط ، وتمثل الخطر على حياة الزعيم ، وتجسم المصاب الأليم أمام الاطباء وأمام السيدة الجليلة أم المصريين ، فامتلكت عواطفها اشفاقا عليه من الانزعاج ، ومرت بها لحظات رهيبة ما كان أقساها على زوجة وفية أمام مصابها فى زوج بار عظيم

واشتدت الحال فى هـــذا الصباح ، ووقف الاطباء مع السيدة الجليلة يساعدونها ويحملون عنها من أهوال هذا الموقف العصيب . واشتاقت لحـديثه كعادتها ، فقالت له :

— كيف أنت يا باشا اليوم ؟

ففتح عينيه فى غيبوبة من سكرات الموت يعانيها ، وقال :

« أنا انتهيت . . »

وكانت هـذه الكلمة آخر كلماته ، وأخذته سكرة الموت طول اليوم ، فلم يتكلم بعدها أبداً . .

وفى العاشرة الا عشر دقائق كان الاطباء مجتمعين لكتابة تقرير عن صحته ، وكان بينهم فتح الله باشا بركات ، فدعى إلى مخدع خاله ، فأسرع اليه ، فوجده يجود بنفسه الأخير ، فعاد إلى الحاضرين فى بيت الامة ممتقع اللون ، معقود اللسان ، و وقف مشلول الحركة ، ذاهل الفكر ، فنظر اليه الحاضرون فى جزع متسائلين فلم يرد جواباً . و بعد لحظات سمع صوت بكاء فى الداخل ، فصاح فتح الله باشا وهو يضرب على ركبتيه :

— مات سعد . . !

فارتعدت الاصوات بالنحيب ، وانفجرت العيون بالدموع ، وانصب المصاب فى النفوس فزلزلها ، وصدع الألباب فأذهلها ، وانتظمت الاحزان أنحاء البلاد ، فسكت كل شاد ، وتحطمت كل قيثارة ، وتعثرت سوابق الآمال، وتبددت محاسن الاحلام ، وملك كل من فى مصر الأسى ، فأينما ذهبت رأيت العامل فى مصنعه باكياً حزيناً ، والتاجر فى متجره آسفاً كئيباً ، والموظف فى وظيفته شجياً مهموماً ، والطالب فى مدرسته شارد الذهن مكلوما ، والكاتب فى مكتبه مسلوبا مكموداً ، والزارع فى مزرعته قد شغله الألم عن جهاد العمل ، فانقطع للحسرة والاشجان ، وكأنما الجميع — وقد أحبوا سعداً ، وأكبروا سعداً — كانوا يظنون أن القدر لا سلطان له على سعد ، وان الموت لا يستطيع أن يمتد اليه ، فلما نعى اليهم فى فحمة الليل ، فوجئوا بالفجيعة ، فكانت دهشة ، وكان ذهول ، وكان ظلام فوق ظلام ، وحداد فوق حداد . وكان ليوم سعد من اللوعة والروعة بقدرماله من المآثر العظمى فى تاريخ الجهاد الوطنى ، والتفانى فى سبيل الحرية والاستقلال

محمد حافظ ابراهيم بك

ودخلنا عليه مسكنه بالجيزة قبل أن ينزل به الحمام بثلاثة أعوام ، فألفيناه فى جلباب أبيض وعباءة بنية ، وقد أمسك مدلكا طبياً فى يده ، فقلنا :

— ما هذا يا شاعر النيل ؟

قال :

— مدلك للامعاء ، كلما ألمت بها آلام فزعت اليه ، واستجرت بعجلتيه ، فأديرهما على معدتى وأمعائى من الشمال الى اليمين ، وقد أديرهما على ساقىّ من أسفل إلى أعلى ، ففيهما فائدة زعمها لى الطبيب ، وصدقتها التجربة

قلنا : قد يغنيك عن هـذه الأداة حمية وصيام عن الشراب والطعام ، فما نحسب تعب أمعائك ، الا من كثرة غذائك !

فقال : ما هذا يا أولاد ؟ كنا ننقم من الدهر شقاءه ، فجئتم تنقمون منا هناءه ، لقد جعنا فى شبابنا ، فلنأ كل فى شيخوختنا ، وليس من الموت بد ، سواء أصمنا أم أكلنا ، فخير لنا ان نموت شباعاً من ان نموت جياعاً . . . !

— وهل يغنى الشبع اذا بانت الحياة ، وحل الأجل ؟

— لا ، كما لا يغنى الجوع !

— لكن فى الجوع ما يكسب الجسم صحة ، و يطيل الحياة

— لا أظن ، ولست أطمع أن تطول حياتى ، و ودت لو لقيت الموت الآن ، وانى لأعجب من دلفه فى بطء وكأنما أدركته الشيخوخة على توالى الاجيال ، فما يستطيع أن يسرع الخطى ليشفى نفساً سئمت العيش ، ومرضت من الحياة

عجبت لعمرى كيف مد فطالا وما أثرت فيه الهموم زوالا
وللموت مالى قد أراه مباعداً وجل مرادى أن أوسد حالا

— إذن فدعاك من المدالك ، وليكن ما يكون !

— يا خبثاء . . أ آلام فى النفس ، وآلام فى الجسم . والله ما حرصت على البقاء بقدر حرصى على الصحة ، وما طمعت فى السلامة إلا فراراً من بلاء الداء ، وقد يفر من النار المنتحر بلهيبها ، و يتشبث بالنجاة الدافع بنفسه الى الغرق

— ولماذا تتألم نفسك الآن ، وقد بسط الله لك الرزق ، فصرت فى كبار الموظفين وعداد المحظوظين ؟ !

— ما تألمت لبؤسى فى الحياة فقط ، بل لبؤس مصر ، وضعف أخلاقها ، واضطراب أحوالها ، فلا والله ما تقوم لهذه الأمة قائمة إلا إذا أتيحت لها تربية خلقية . وعندى أن تغلق المدارس خمس سنوات يتعلم فيها الشباب الاخلاق ، أو أن تغير وزارة المعارف برنامجها العلمى ببرنامج خلقى تستفيد منه الأمة ، و يخلق لنا رجالا ، فنحن لسنا فى حاجة الى العلم بقدر حاجتنا الى الاخلاق

يقولون فى النشء خير لنا وللنشء شر من الاجنبى
أفى الأزبكية مثوى البنيـــن ، و بين المساجد مثوى الأب
أمور تمر وعيش يمر ونحن من اللهو فى ملعب
وشعب يفر من الصالحا ت فرار السليم من الاجرب

— لكنك تظلم أمة رزحت فى الاحتلال طويلا ، وناءت بأوزاره ، فأفسد أمرها ، وأضعف أخلاقها

— هذا حق ، فقد أنساها الاجنبى ماضيها المجيد ، وميراثها العظيم ، بل أنساها كل شىء حتى الكرامة والرجولة

لحى الله عهد القاسطين الذى به تهدم من بنياننا ما تهدما
سلام على الدنيا سلام مودع رأى فى ظلام القبر أنساً ومغنما

— أراك تكثر من ذكر الموت حتى فاضت به أشعارك ، وكلما اعتراك

ضيق فزعت اليه ، وأشدت بالثناء عليه ، أفترى فيه علاجا لنفسك ، وتفريجاً لهمك ، أم انه فرار من الميدان

— كلا ، بل رأيت الموت للحر أعصم ، ونجاة الكريم من خسة الحياة أكرم ، وما أنا بهارب من الميدان ، ولكن حال مصر يستوى فيها الشجاع والجبان

فقد غدت مصر فى حال اذا ذكرت جادت جفونى لها باللؤلؤ الرطب
كأننى عند ذكرى ما ألم بها قرم (١) تردد بين الموت والهرب

لقد ضاعت الحقيقة فيما بيننا ، واستوى الحسن والمسىء . وهضم العالم العامل ، وأكرم المفسد الجاهل ، وشابت الفضيلة ، وأهلكت الحزبية المودة ، وفتكت بسداد الرأى ، وعصفت بالكرامة . وأصبحت الوطنية عندنا تجارة مأربها الربح الشخصى ، وغايتها النيابة أو كرسى الوزارة . وما أنا وحياة تخاذلت فيها الهمم وفسدت فيها الذمم

* * *

وكان حافظ ابراهيم رقيق الطبع دقيق الحس ، يتألم لكل شىء يبعث الألم حتى لو كان مصدر الألم نفسه ، وقد أصيب فى اواخر حياته بفلسفة البطن ، وهى فلسفة تنوء المعدة فيها بأحمالها كلما جاء الطعام ، حتى اضعفت امعاءه البطنة ، واشتدت بها الآلام ، فاضطر الى عمل جراحى بها يدعى « عملية افرنوف » . وقد نصحه الطبيب باستعمال المدلك كلما شعر بالألم أو أحس وقوف الهضم . وكنا نتردد على مسكنه فى زمرة من الأدباء ، وغاب عنه ذات مرة زائروه ، وانقطعوا مدة عن زيارته ، فلما قابلناه ارتجل هذه الابيات :

انا فى الجيزة ثاو ليس لى فيها انيس
انكر الأنس مكانى ونأى عنى الجليس
ليس يدرى من رآنى اطليق ام حبيس

---

(١) القرم بفتح القاف السيد العظيم ، والبطل الشجاع

فرد عليه الاستاذ محمد الهراوى بأبيات منها :

انت فى الجيزة خاف   مثلما تخفى الشموس
قابع فى ركن بيت   قد أظلته الغروس

وقابله ذات مرة المرحوم مصطفى صادق الرافعى وكان قد أزمع السفر إلى بلاد اليونان . فقال له الرافعى :

ــ ألا تخشى ان تموت هناك ، فتموت يونانياً !

فقال حافظ :

ــ أو ترانى لم امت فى مصر ، ان الذى بقى هين . . !

وانتقل حافظ من الجيزة الى مسكن آخر بضاحية الزيتون على اثر إحالته الى المعاش . وفى هذا الحين كتب له صديقه الاستاذ خليل مطران هذه الأبيات :

حبست على الوظيفة منك نوراً   تفقده الحمى والليـل غاش
وقيدت القريض على افتقار   من الوطن العثور الى انتعاش
فما صدقوا وغيرك قد عنوه   بقولهم احيل الى المعاش

وفى هذه الفترة التى فصلت بين نهايته فى الوظيفة ، ونهايته فى الحياة نشر قطعاً من الشعر السياسى أعادت سابق عهده فى هذا المجال ، وكان منها فى حياد الانجليز :

لا تذكروا الأخلاق بعد حيادكم   فمصابنـــا ومصابكم سيان
حاربتم أخلاقكم لتحاربوا   أخلاقنا فتـــألم الشعبان

ومر على مسكنه الأول بالجيزة قبل وفاته بخمسة أشهر ، فاهتزت فى نفسه الذكريات ، وأخذ يودع الحياة ، ويقول :

قالوا تحررت من قيد الملاح فعش   حراً ففى الأسر ذل كنت تأباه
فقلت يا ليته دامت صرامتـه   ما كان أرفقه عندى وأحنـاه
أسرى الشبيبة أحياء وان جهدوا   أما المشيب ففى الأموات أسراه

كان هذا الوداع فى ٢٦ فبراير سنة ١٩٣٢ ، وكان فى ذلك الحين أحسن

صحة ، وأبهج نفساً ، وقد خلع عنه تكليف الوظيفة فى دار الكتب بعد عشرين عاماً ، وإن لم يكن طول هذه المدة مكلفاً بعمل كما يكلف الموظفون . وقضى حافظ المدة الباقية من حياته بين أصدقائه لم ينقطع عنهم يوماً ، ولم يعتكف لداء ، بل بقى معهم مرحاً طروباً كعادته الى آخر يوم فى حياته . وكان اذا ذكر الضعف والشيخوخة وما يليهما من موت قال إنه يعتقد أن موته سيأتيه من أمعائه ، لأنها أضعف ما فيه ، وهى لا يصلحها دواء ولا صيام

واستمر حافظ لا يبالى بالموت ، أو قل استمر يمدحه ويناجيه ، حتى كانت ليلة الحادى والعشرين من شهر يوليه سنة ١٩٣٢ فسكن مرضه المعوى ، وحدث جلساءه فى تلك الليلة بما يشعر به من صحة جيدة ، لم يعهدها منذ سنوات

لكن لم يدر حافظ أن ما شعر به من صحة جددت فى نفسه الأمل ، كان خدعة القضاء ، وصحوة الفناء . وكأن الجسم اذا شعر بالموت مقبلا عليه اهتزت خلاياه ، واستجمعت ما فيها من قوة لتكافح الكارثة ، فيشعر المريض بانتعاش نفسه ، ونشاط صحته ، ثم لا يلبث حتى تخمد جذوته ، وتخبو حركته . كالمصباح اذا شارف النهاية توهج واشتد لمعانه حتى يكاد يبهر العيون ، ثم يتخاذل ويحترق

كذلك كان حافظ ، فقد كان فى ليلة وفاته بصحة جيدة ، ذكر بها عهد الشباب ، وريعان فتوته ، ونضارة بهجته ، فجلس بين أصدقائه مسروراً ، ثم آب الى بيته متفائلا فى نحو منتصف الليل

اطمأن حافظ فى مخدعه ، وظن أن الحياة قد امتدت له سنوات أخرى ، وأن شبابه الذى ضاع فى شجو وأنين ، وخيبة وأشجان ، عاد اليه ليستأنف حظه في رغد من العيش بعد بؤس ، وابتسام من الأيام بعد عبوس

أوأن الشيخوخة أرادت أن تديل له من الشباب ، وتعوض له ما ضاع عليه من متاع ، وأن تأتى بالمعجزة فى حياة شاعر أهرمته الهموم قبل أن يوافيه الهرم ، وقوضته الاشجان قبل ان تقوضه الشيخوخة ، وعاش طول حياته كئيباً مكلوماً

نعم ، أو أن الحظ الذى طالما بكاه وناجاه ، قد أسعفه فى تلك الليلة وواتاه ،

أو أنه طوى من الأيام ما عاد به القهقرى فاستأنف عهد « الامام » ، وما كان يعيش فيه من سعادة روحية ، وعطف ظليل ، وحظ جزيل ، أو أن لحظات من الجنة اعارته بهجتها فى أواخر لحظاته ، فانتعشت روحه ، وذهب عن جسمه الألم

نام حافظ ، ولم تنم عنه عين الموت ، ولم تطل به راحة الكرى ، حتى اسرع اليه الخطى ، ووقف شبحه على سريره يناجيه :

ها أنذا يا حافظ ، دعوتنى مراراً فلم أجبك ، وناجيتنى أياماً فلم أسمع اليك ، وأقبلت مستنجداً فأعرضت عنك ، وشكوت مرارة الحياة فقسوت عليك ، وفزعت من ظلام الخطوب ففررت منك ، ومدحتنى بما لا تمدح به الغيد الحسان ، وأرباب العروش والتيجان ، فما عطفت نحوك ، ولا سمحت بلقائك ، لكنك وقد بلغت النهاية ، واستوفيت من الحياة ما شاء القدر ، فقد جئت مستجيباً لندائك ، مسرعاً بعد بطء الى شفائك ، باعثاً بك الى برد الثرى

حن جنباى الى برد الثرى   حيث أنسى من عدو وحبيب
مضجع لا يشتكى صاحبه   شدة الدهر ولا شد الخطوب

وكانت الثالثة بعد منتصف الليل ، فاستيقظ حافظ من ألم هائل انتابه ، فمنعه من التأوه ، ولم يستطع أن يفوه إلا بهذه العبارة :

— عاوز طبيب . ادعوا لى عبد الحميد البنان يجيب لى طبيب حالا

وكان السيد عبد الحميد البنان نائما فى تلك الساعة ، فاستيقظ على دق التليفون دقاً مزعجاً فهب من فراشه وسأل «من المنادى» ؟ فاذا به داعية من بيت حافظ تبلغه نبأ مرضه المفاجىء ، وترجوه أن يحضر تواً مع أحد الأطباء ، فأسرع السيد عبد الحميد الى ضاحية الزيتون ومعه الطبيب ، ودخلا على شاعر النيل ، فوجداه صريع « الحمى الشوكية » فناادياه فلم يجب ، والتفت اليهما ودمعت عيناه ثم تحركت شفتاه فى غير صوت بالتأوه والاستغاثة ، وأردمت عليه الحمى ، وتخونت جسمه ، فلم يستطع حركة ولا كلاما ، ودخل فى دور الاحتضار فى السابعة صباحاً . وودع الحياة فى سلام على الدنيا وما حوته من خطوب وأشجان وآلام

السيد توفيق البكرى

— يا ما أحيلى الوحدة والريف ، وذلك المشتى والمصيف ، والجو السجسج والظل الوريف (١)

— لكنك يا سيد توفيق قد أطلت الوحدة ، وملت بك العزلة . وحبست نفسك فيما لا يحبس الناس فيه أنفسهم ، وقيدتها فى غرفة ضيقة المذاهب ، قاتمة الجوانب ، لا تعرف فيها اليوم من الامس ، ولا تزورها أشعة الشمس ، وهى أشبه من البيت بالرمس . وما أنت فى الريف ، حتى تهنأ بالمشتى والمصيف ، والجو السجسج والظل الوريف ، وما لأحد غنى عن الايناس ، والجلوس حيث يجلس الناس

— وما لى وللناس ، وأميرهم العباس ، وقد مارستهم أشق مراس ، فلقيت منه الغدر والباس ، وفقدت فيهم المودة والايناس

ذرينى وكتبى والرياض ووحدتى   أظل كوحشىٍ باحدى الامالس
يسوف (٢) أزهار الربيع تعـلة   ويأمن فى البيداء شر المجالس

رحماك ان عزلة بين كرم واعناب ، ودواة وكتاب ، لهى الجماعة والانس للنفس ، وان اجتماعا بكبير يزار ، أو رئيس لا يجد نفسه بالليـل ، ولا تجده فى النهار ، أو عدو ليس من صداقته بد ، أو حقود ذله أظهر منه الود ، او حسود ملق ، كالذبابة يضحك وهو يحترق ، أو جاهل متعاقل ، أو متصفح وهو باقل ، أو صغير به كبر ، أو خدين فيه غدر ، لهو وايم الله الوحشة والوحدة

---

(١) الجو السجسج المعتدل . وقد راعينا فى هذه المأساة طريقة السيد البكرى فى السجع
(٢) يسوف أزهار الربيع أى يتصبر بها . والامالس جمع أمليس ، وهى الفلاة

جزى الله عنى مؤنسى بصـدوده   جميلا ففى الايحاش ما هو إيناس

فقال محدثه وصديقه الشيخ على يوسف :

— وهل يسرك ان تقاطع الاخلاء ، وتتناسى الاصدقاء ، وتفر منهم كما يفر السليم من الداء

قال السيد توفيق :

— واما الاخلاء والصحب والسجراء[1] ، فحسبك من رجـل عون فى أمر لم ترده ، ونصير فى كل مطلب لم تقصده ، فان عرض لك بعض الحـاج ، فالعلوى يسترفد الحجاج ماء ، يتلون بلون الاناء ، ونيلوفر يدور مع الشمس فى الصباح والمساء . إن جددت فاليك ، وان شقيت فعليك ، مدح مع المادح ، وقدح مع القادح ، أجسام متدانية ، وقلوب متنائية ، وان كان خبر سوء فحماد الراوية ، مئذنة فى ظاهر مستقيم ، وباطن معوج

— كذلك كان الناس ، منذ خلق الله الأجناس ، ورب شر لو لم يقع لما وقع الخير . وقد سارت سنة الحياة على ان يحمل الانسان أخاه الانسان ، بما فيه من طماعية النفس وخسة الشيطان

— دعنى يا سيد على . فلقد صدق احمد بن الحسين حين قال :

ومن عرف الايام معرفتى بهـا   وبالناس روّى رمحه غير راحم

فليس بمرحوم اذا ظفروا به   ولا بالردى الجارى عليهم بآثم

— أراك ضقت بالدنيا ، وما عهدتك الا سمحاً صبوراً ، فما بك فى هـذه الأيام ؟ لعلك انهكت أعصابك ، فأرح نفسك ، فانك على ما يبدو أحوج الى الراحة ، وأولى بالهدوء والاطمئنان

— عندى قصيدة أنظمها ، ومقالة أرسمها ، وأحب أن اسمعك شيئاً . . .

— لا ، دعك من النثر والشعر ، ومشاغل النفس والفـكر

ونهض الصديق الشيخ على يوسف . وكان الجفاء وقتئذ قد عاد بين الخديو

---

(١) السجراء جمع سجير وهو الصديق



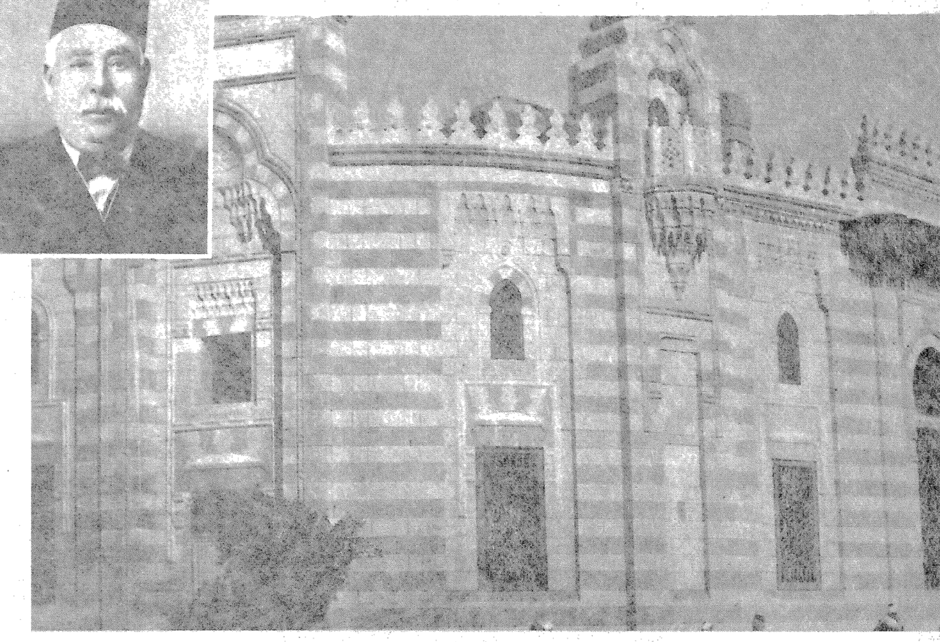
السيد توفيق البكري



أمير الشعراء احمد شوقى بك



الاستاذ داود بركات وهو على فراش الموت



مسجد احمد زكى باشا بالجيزة وفى أعلى صورته

عباس و بين السـيد محمد توفيق البكرى . فقد نقم الامير عليـه اموراً دفعته الى قطيعته ، واسلمته الى نقمته ، وكان قد كتب فى جريدة اللواء مقالا سنة ١٩٠٨ لم يرتح لموضوعه الخديو ، فغضب عليه . وزار « السيد » الأستانة . فأنعم عليـه السلطان برتبة الوزارة العلمية ، فكان العالم الوحيد الذى أنعم عليه فى مصر بهذه الرتبة . فجاهر الخديو بانه سيسعى لبعض أنصاره العلماء فى الحصول عليها من السلطان ، فقال السيد :

— أؤكد ان سمو الخديو لن يظفر بالانعام بهذه الرتبة على مصرى غيرى

وكان يعنى بذلك أنه آخر من أنعم عليهم بهذه الرتبة ، ولما كان عدد المنعم عليهم محدوداً فى الدولة ، فليس الانعام ممكناً الا اذا مات أحدهم

و بلغ الخديو ما قاله السيد . فغضب وتوعد . وسمع السـيد ان الخديو قد توعده ، فاستولى عليه الخوف ، وانقلب الخوف الى وهم ، وتحول الوهم الى خيال مملوء بالمردة والشياطين ، وتمادى هذا الخيال ، فتطور الى مرض مقلق يتراءى فيه أعوان الخديو وقد أحاطوا به ، واقبلوا عليـه يريدون به شراً ، فاعتزل الناس ، وأوى فى منزله الى غرفة مقفلة الباب لا يسمح لأحد بدخولها الا اذا هدأت أعصابه ، وعاد اليه هدوؤه ، وزايلته أوهامه

وكان الشيخ على يوسف يتردد عليه بالزيارة ، ليخفف عن صديقه ما يعانيه من الوساوس النفسية ، والاضطرابات العقلية ، فيصيب منـه تارة يقظة ورشداً وتارة أخرى قلقاً وانسياقاً مع الأوهام والأحلام . فـكان يرى من الأشباح فى اليقظة ما يراه الحالم فى المنام ، وقد وصف مرضه العقلى فى ساعة من رشده فى بيت لعله آخر ما نظمه من الشعر قال :

قد كنت أحلم قبل اليوم فى سنة   فصرت أحلم بعـد اليوم يقظانا

وقد اشتد عليه المرض ، حتى لم يدع له وقتاً طويلا من هناء النفس ، ومتعة الفكر ، والأنس إلى الصحب والاصدقاء . وخالطه الخيال المشوش، واستولى عليه الوهم المظلم ، فاعتقد انه مضطهد من الخديو عباس الثانى ، مطارد برجاله

— الىَّ أيها الناس . . يا بوليس . . يا نيابة . . يا حكومة يا رئيس النظار . رجال الخديو يريدون قتلى !

واستمر يهرف، ولازمه هذا الخيال، وتراءت له الاشباح فى صباحه ومسائه ، وقيامه ومنامه ، وكان إذا اشتدت به الحال نهض ففتش تحت الأسرة والمقاعد ، ووراء الابواب والستائر ، خشية ان يكون أحد رجال الخديو متربصاً به

وأخذ يبعث بالرسائل إلى النائب العمومى ليحميه ، والى محافظ العاصمة ليبعث اليه من رجال البوليس من ينقذه ، ثم يكتب البرقية تلو البرقية الى بطرس باشا غالى رئيس النظار يشكو له رجال الخديو ، ويتهمهم بتآمرهم عليه ، فيرد عليه رئيس النظار بان الحكومة ستتخذ الاجراءات اللازمة لحمايته ، ثم يأمر النائب العمومى ان يزوره فى قصره ليطمئنه .

وطلب السيد توفيق صديقه الشيخ على يوسف ذات يوم ، ورغب اليه فى الذهاب إلى الخديو ليرسل اليه رئيس ديوانه ليطمئنه ، فأجاب الصديق رغبة صديقه ، وقابل سموه،وشرح له حالته ، فأشفق عليه ، وبعث أحمد شفيق باشا رئيس الديوان الخديوى ليؤكد له رضاه عنه ، ويذهب عنه وساوسه ، لكن الداء كان قد استفحل ، واستبد بنفسه فلم يفده توكيد ولا اقناع ، ولم يغنه عطف ولا اشفاق

وبقى الاديب الكبير فى مصابه بنفسه يتألم ، ويشعر بالاضطهاد من الخديو ، ورجاله ، ومن الحكومة ، بل من أصدقائه وذويه وأهله ، بل من العالم كله . وعاش فى خيال دامس تتراءى فيه أشباح القتلة والشياطين ، بعد ان كان يطير بعقله الذكى ، وقلبه الشاعرى فى أجواء سداها نور وجمال ، ولحمتها أحلام وآمال، ونجيه فيها شمس وهلال

« أيا ضوء الهلال لطفت جداً كأنك فى فم الدنيا ابتسام »
« يحبب لى سناك العشق حتى يصاحبنى وأصحبه الغرام »

« بدا الهلال كأنه خنجر من ضياء ، يشق الظلماء ، أو قلادة ،أوسوار غادة ، أو سنان لواه الضراب ، أو الليل فيل وهو ناب ، أو عرجون قديم ، أو نون من

خط ابن العديم (١) ، أو برثن ضيغم ، أو مخلب قشعم »

ويقول على قبر عزيز : « أطلق الدمع وأطرق ، فقد غربت الشمس في المشرق ، فيا هزيمة العقل ، وصولة الجهل ، ويا وحشة الدور ، وأنسة القبور ، أقبر هذا أم جفن فيه سيف جراز ، وترب فيه تبر وركاز (٢) ، وقليب هريق فيه ذنوب من كرم ، وجفر (٣) تهدم فيه بنيان من همم

« كم ذابت في ذاك الثرى خدود وجباه ، وثغور وشفاه ، وسلب من أنف شمم ، وبنان عنم ، وكم خربت فيه قصور ، وهتكت ستور ، وجمعت أضداد وفرقت أمهات وأولاد

لم يكونوا إلا كركب تأنى برهة في مناخه ثم سارا

« سبحانك اللهم وسعدانك ، من حبس ، الى رمس ، ومن عبث ، الى جدث »

وسبحانك اللهم وسعدانك من صحة الى مرض ، ومن خيال رفيع الشان ، الى أوهام طافت بها وساوس الشيطان ، فغاض هذا النبع ، وجف هذا المعين ، وتشعت هذه القوة ، وانطفأت تلك الجذوة ، وسكت هذا الشادي فما سمعت له أذن سجعاً بعد النكبة ، ولا طربت بأدبه نفس بعد الكارثة ، واعتزل الناس ، أو هم اعتزلوه ، ومات السيد البكري قبل ان يموت بثلاث وعشرين سنة

***

وكان السيد توفيق من أعوان الخديو عباس في مبدأ عهده ، ثم سعى الوشاة بينهما ، فأخرجه من ساحته ، وألجأه الى الاستقالة من مشيخة الطرق الصوفية ، ثم عاد فرضي عنه ، وصفت له الايام ، وابتسم له الحظ

وفي ذلك الحين أقبل أحد أعياد الجلوس ، فتألفت لجنة لعقد مباراة بين

---

(١) ابن العديم من المشهورين في خط النسخ ، ومن علماء القرن السادس الهجري . وهذه الفقرات من كتاب صهاريج اللؤلؤ للبكري (٢) الركاز ما ركزه الله من المعادن في الارض (٣) القليب البئر ، والذنوب الدلو ، والجفر البئر الواسعة

الشعراء لاختيار أحسن قصيدة تقال فى مدح الأمير ، ففاز السيد توفيق فيها بالمدالية الذهبية

وأخلص للخديو أيما اخلاص ، ووالاه ولاء ضحى فيه بصداقته للاستاذ الامام الشيخ محمد عبده ، وتقديره له واعترافه بفضله ، وكان اصلاح الأزهر ، فأراد الخديو ان يغير بعض أعضاء مجلس الادارة بآخرين من الموالين له ، فكان السيد توفيق البكرى أول الساعين لخدمته . وقد بعث بخطاب وقتئذ إلى الخديو قال فيه :

« مولاى أدام الله ملكه

« أخبرنى محمد بيرم بك أمس بخبر ، ولكنه يقبل قدم افندينا بألا يسمعه أحد ، فانه ان سمع لغط ، وذلك الخبر هو ان الشيخ محمد عبده توجه أول أمس إلى اللورد كرومر ، وقال ان سمو مولانا الخديو يريد رفتى ورفت مجلس الادارة جميعه ، وطلب منه ان يتداخل فى الأمر ، فقال اللورد بانه لا يمكنه التداخل ، ولما يئس الشيخ محمد عبده منه ، قال ائذن لى حينئذ ان أتوجه للاسكندرية ، وأتكلم مع سمو الخديو ، فقال له اللورد أنا لا أمنعك أن تتوجه ، ولكن الأليق أن تنتظر سموه إلى ان يحضر ، فخرج الشيخ محمد عبده وقابل بطرس باشا غالى ، فأشار عليه بالسفر إلى الاسكندرية ، فقال الشيخ محمد عبده لكثير من أصحابه : « إنى سأسافر فى هذا المساء إلى الاسكندرية ، لمقابلة ولى النعم » ، فأشيع الخبر فى مصر ، بانه سافر حتى انه كتب فى بعض الجرائد ، ولكنى طلبت مقابلة الشيخ محمد عبده أمس فحضر عندى ، فسألته عن المسألة بوجه الاجمال ، لأعرف فكره ، فوجدت انه خضع ، وغير الموضوع حيث قال : « انه لا يوجد أدنى توقف منا فى تغيير مجلس إدارة الأزهر ، ولكن لم نفهم قصد سمو افندينا تماما ، فنحن ننتظر مقابلته بالذات لنفهم الغرض فننفذه » ، وكذلك شيخ الجامع قال لشفيق بك صباحاً بان المشايخ مستعدون لتقديم الاستعفاء ، ولكن لسمو أفندينا بالذات ، وهذا كله غيرما كانوا يقولونه قبل مقابلة الشيخ عبده لكرومر . ورأى عبدكم ان سموكم

لا تظهرون لهم أدنى غضب ، ولـكن حيث انهم لم يفهموا ، ولم يثقوا بان أكون أنا واسطة بين سموكم وبينهم ، فسموكم تفهمونهم المسألة ، وتأمرونهم بتنفيذها فى الحال ، وقبل صدور الامر بالتنفيذ تتكلمون مع اللورد كرومر فيها من باب حسن المعاملة

« هذا ، وعندى أشياء كثيرة سأتشرف بعرضها عند تشريف الركاب العالى الى هنا . أدام الله مولاى ولى النعم مؤيداً بالعز والنصر دوام الدهر

العبد الخاضع

محمد توفيق البكرى

« حاشية ــ المبدأ الذى يتخذه مولاى فى هذه المسألة هو هذا : انى أريد اصلاح الازهر ، لأنى أعتقد انى باصلاحه أصلح حالة الامة الدينية والادبية ، ولـكن لجنة الادارة الحالية ، لا يمكنها أن تنفذ الاصلاح لسبب هو ان أعضاءها قسمان قسم ضعاف جداً لا يصلحون للعمل ، وقسم أذكياء ، ولـكن الثقة الدينية مفقودة منهم ، فلجنة بهذه الصورة لا يمكن ان علماء الأزهر يقبلون لها أمراً ولا نهياً ، وكل اصلاح منها يقابل بالرفض والهياج ، فأحببت ان أبقى الأذكياء ، وأبدل الضعفاء بآخرين حائزين للاقتدار والثقة ، فيكون من مجموع الـكل لجنة مقتدرة ذكية فيها ثقة يمكنها أن تقنع العلماء بقبول الاصلاح

« أما الاعضاء فعندنا أسماء كثيرة منها الشيخ النجاتى مفتى الاوقاف الذى شمله مولاى بعنايته أخيراً »

واندفع السيد توفيق فى مناصرة الخديو عباس وتأييده ، وخذلان خصومه ، ثم دارت الدائرة عليه ، فكان لذلك وقع شديد فى نفسه ، وكانت العزلة مبدأ داء عصبى شديد ، ثم تفاقم الداء ، ومكث ثلاث سنوات يعانى آلامه فى مصر ، ثم سافر إلى مستشفى العصفورية بلبنان سنة ١٩١٢ فبقى فيه إلى سنة ١٩٢٨ ، وعاد إلى مصر ، ولـكنه مهدوم البنية منهوك القوى ، يخطو إلى القبر ، ويستقبل الفناء ، وما زالت أوهامه ملازمة له ، لـكنها كانت تتخللها فى بعض الحين فترات يثوب

فيها إلى رشده ، ويذكر سابق عهده ، ويروى لمحدثيه جميل أيامه ، وما سمح به الدهر من لحظات ابتسامه ، ويستعيد الحوادث ويسوق الذكريات ، وكلما مر على حادث ذكر رجاله بالخير ، المحسن منهم والمسيء ، حتى إذا أتى على حادث الأستاذ الشيخ محمد عبده استغفر لنفسه ، وندم على ذنبه

وقبل وفاته بأيام ، كان اذا جاء ذكر الشيخ محمد عبده ، وما وقع له معه قال لمن حوله :

« أحب أن يذكرعنى كل من يعرض للكتابة فى هذه الحادثة أننى أخطأت وإننى آسف لهذا الخطأ »

وكان اعترافه بذنبه فى حق الامام آخر أحاديثه ، فلم يسمع منه بعده حديث مستقيم ، حتى كان السبت ١٣ أغسطس سنة ١٩٣٢ فوافاه الأجل المحتوم بعد ما ذاق من دنياه أشق ما يذوقه الصحيح والسقيم . وقد صدق فى وصف الدنيا حيث قال فى كتابه صهاريج اللؤلؤ :

« دنيا تغر الجاهل . ولا تسر العاقل . دار لا يدخلها الطفل إلا وهو باك . ولا يخرج منها الكهل إلا وهو شاك . قد عصفت بالشرور سوافيها . ومن اذنب فى جهنم وجب ان يعذب فيها . أشأم من مشأم . خطب يسير فى خطب كبير . . ليس بها لذة إلا ممزوجة بألم . ولا دسم إلا مخلوطاً بسم ، ولا ضاحك إلا وهو باك كالغمامة ، ولا شاد إلا وهو نائح كالحمامة

لو يعلم النـاس علمى بالزمان لما   سرّوا بشيء ولا ربوا ولا ولدوا»

أحمد شوقى بك

لما قال أمير الشعراء أحمد شوقى فى رثاء شاعر النيل حافظ ابراهيم :

قد كنت أوثر أن تقول رثائى   يا منصف الموتى من الأحياء
لـكن سبقت وكل طول سلامة   قدر ، وكل منيـة بقضاء

قلنا : لقد نعى نفسه أمير الشعراء ، وآذنت شمس حياته بالمغيب ، وما نحسب أنه مقيم بيننا طويلا ، وقد لا ينتهى العـام ، حتى نفتقـده بين الصفائح والرجام

وكنا وقتئذ فى آخر يوليه سنة ١٩٣٢ ولم يجف دمعنا على شاعر النيل ، ثم مضت بعد وفاته ثلاثة وثمانون يوما ، وفى صبيحة اليوم الرابع والثمانين ــ وهو ١٤ اكتوبر ــ طوى مصر والجزيرة العربية والشرق كله نبأ فزعت فيه دولة الأدب بآمالها الى الـكذب ، لأنه كان نبأ مفاجئاً ، ولأنها كانت تتمنى لشوقى حياة طويلة ، ولها من نبوغه ثروة جديدة

وقبل أن يموت بأيام عاد فى المساء إلى داره « كرمة ابن هانىء » ، فلما دخلها وقف بالحديقة وقال لسكرتيره :

ــ كم قبراً تسع هذه الدار ؟

فدهش السكرتير ، وقال له :

ــ ولماذا هذا السؤال يا باشا [1] ؟ !

فقال :

---

(١) كان شوقى يدعى بين عارفيه بهذا اللقب لانه يحمل رتبة الامتياز

— لا شيء ، لـكنه خاطر مر بنفسى ، فذكرت الموت ، وطالما خالجتنى ذكراه فى هذه الايام ، فهب انى مت فماذا يكون ؟ !

— عشت يا أمير الشعراء ، ولا روعت فيك مصر ، ولا فجع بك الشرق العربى

— لا تخف فليس الموت بالمصيبة العظمى ، وقد يكون منجاة من حسد حاسد أو حقد حاقد ، والقبر أبقى من هذه الدار ، وهو لا يشغل غير عشرة أمتار ، أما هى فقد شغلت خمسة آلاف متر ، فلو بنيت فى مكانها قبور لاتسعت لخمسمائة قبر ، أليس كذلك ؟

فاسقط فى يد السكرتير ، وعاد شوقى فاستأنف كلامه ، فقال :

« أى أن كرمة ابن هانىء تشغل من الأرض ما يكفى ثلاثة آلاف من « الموتى » فما أعظم طمعنا فى دار الفناء ، وقناعتنا فى دار البقاء

— أراك اليوم تذكر الموت ، وقد نهيتنا عن ذكره فى مجالسك ، وتمنيت لنا منه النجاة

— نعم ، ولـكنى ما خفته يوما ، وما ذممته قط ولا لذت منه بالفرار ، ولا نقمت لأجله على الأقدار

أنا من لا يرى الفرار من المو ت ، ومن لا يرى من الموت بدا
إنما الموت منتهى كل حى لم يصب مالك من الملك خلدا
سنة الله فى العباد ، وأمر ناطق عن بقائه ، لن يردا

ولماذا الفرار من راحة بعد عناء ، ونعيم بعد شقاء ، فان « الحياة كعهدك بها معصية ، عن الحظيرة مقصية (١) ، وخلوة حلوة عواقبها نغص ، ومشاربها غصص ، أفعى خداعة ، ولذة لذاعة ، شوك بغَضّ الورد ، وقذى نغَّص الورد(٢) ، أمور شتى الأعنَّة ، وحوادث وقَّع وأجنَّة ، فقل لمن أطال التفكير ، وبالغ فى

---

(١) هذه الفقرات من أسواق الذهب لشوقى (٢) الورد بكسر الواو الاشراف على الماء للاستسقاء

التنكير، وكد باله ، ومد بلباله ، واحترق احتراق الذبالة :

خل اهتمامك ناحيه   وخذ الحياة كما هيه »

ولنعد إلى كرمة ابن هانىء ، أليست واسعة الجوانب ، ثم أليست تتسع لخمسمائة قبر ، فى كل قبر ستة أموات ، فتكفى اذن ثلاثة آلاف ميت فبئس حرص الانسان و بئست نفسه المدمنة على الشهوات

والنفس عاكفة على شهواتها   تأوى إلى احقادها وتثور
والعيش آمال تجد وتنقضى   والموت اصدق والحياة غرور

نعيش ونمضى فى عذاب كلذة ، وفى لذة كعذاب . ونذهب من الاحلام فى كل مذهب ، ثم تنتهى هذه الاحلام الى ذهاب . ونبنى من التراب قصوراً ونحن لعمر الحق تراب . والفلك دائر ما لعصاه مستقر. ودولابه بالعالم سائر ، وعلى جانبيه المرتقى والمنحدر . نقض ايوان كسرى من أساسه ، وأتى الاهرام من أم راسه ، ودهى صرح الحمراء ، فقوض منه أعظم البناء ، ولم تبق له الخطوب إلا عمداً قائمة ، كأنما هى على عباب الأيام عائمة

أين رومية وقيصرها ، وجنة[1] الطلح ومعتمدها ، وأين نابليون وصولته ، وصقر قريش ومنيته[2] لقد صار القصر له قبراً ، ثم ذهب القبر وصاحبه ، وأصبح ذكراً فى الأفواه ، وخاطراً فى النفوس ، أوسطراً فى الطروس

ثم ماذا ، أنسيت السؤال :

— كم قبراً تسع هذه الدار ؟

— ٠١

— أليست كرمة ابن هانىء تسع خمسمائة قبر ، وأليست هذه القبور تتسع لثلاثة آلاف من الموتى ، ثم ألسنا مسرفين جداً . لقد شغلنا من الارض كبيراً ، وعطلنا من منافع الناس كثيراً . فبعداً لطمع الانسان يطلب الجاه ، و يستزيد من

---

(١) جنة الطلح هى وادى الطلح ، كانت متنزهاً باشبيلية المعتمد بن عباد (٢) المنية بضم الميم وسكون النون قصر عبد الرحمن الداخل بمدينة قرطبة ، وقد دفن به

المال ، و يستعمر من الأرض آلافا ، و يكلف نفسه المتاعب ، و يبنى حول حجرته حجرات ، وفوق طبقته طبقات ، و يرجو ان ينطح بها عنان السموات ، وما درى ان الحياة دقائق ولحظات . فما أضله وأعجب عقله . لقد شغل بنفسه عن رمسه ، ونسى انه زائل ولو طال به المدى ، وانه واصل ولو أبطأت به المطية

كل حى وان تراخت منايا ه ، قضاء عن الحياة انقطاعه
والذى تحرص النفوس عليه عالم باطل قليـــل متاعه

انى لأشعر بتعب فى هذه الأيام ، وقد استهلك جسمى الضعف ، وعصرتنى الشيخوخة ، فما أبقت منى غير مخ فى عظام ، وما أحسب انى مقيم طويلا ، فيا ترى على أية الحالين يأتينى الأجل ، أبعد الرقاد أياما أم فى غفلة من النفس ، وسنة من الحس

وأى المصرعين أشد ، موت على علم ، أم الموت الفوات (١)
وهل تقع النفوس على أمان كما وقعت على الحرم القطاة

وكان امير الشعراء قد اشتد ضعفه فى السنوات الأخيرة ، و بدا أكبر من سنه ، وقد دفعته شدة ضعفه الى زيادة عطفه على الفقراء ومواساة البؤساء ، وكان يقول : « حسبى ان اسمع من انسان انه مريض ، او ضعيف أو بائس ، فيعرونى ألم عميق ، و وجد شديد ، هل ترونى أزور الآن العظماء أو ذوى الجاه ، لا ، اننى ضعيف وأحب الضعفاء »

و ركب سيارته من داره قبل وفاته بقليل مع سكرتيره ، فذكرا فى الطريق الأزمة الناشبة فى العالم فى ذاك الحين ، فتحدث عن وجوب الاقتصاد فى تلك الأيام حتى وصــل إلى مكتبه ، فتقدم اليه بعض ذوى الحاجة ، فنفحهم خمسة جنيهات ثم قال لسكرتيره : « كنا نقول من دقائق انه يجب الاقتصاد فى هذه الأيام ، فهيا بنا ننصرف قبل ان يدركنا آخرون » ، و بينما هو يهم بركوب سيارته اقبل عليه بائس ، فقال له : « ليس معى شىء » وأمر السائق بالسير . وما كادت

(١) الموت الفوات الذى يأتى فجأة

السيارة تبتعد قليلا عن المكتب حتى أمر السائق بالرجوع . وقال لسكرتيره :
« ابحث عن الرجل الذى صرفته ، فلعله يكون فى حاجة أشد من الذين تقدموه »
فبحث عنه حتى وجده فعاد به ، فقال له شوقى :

« لا تؤاخذنى ، فأنا مريض وأعصابى ضعيفة . فلا تتكدر من حدتى » .
ونفحه مبلغاً من المال

وكان شوقى قد أصيب بمرض تصلب الشرايين . وكانت أعصابه طول حياته ضعيفة ، وقد زادت ضعفاً بهذا المرض ، وبما كان يبذله من مجهود أدبى فى شيخوخته ، فأصبحت تتأثر بأقل مؤثر ، حتى تكاد تتأثر بخطرات النسيم ، أو بلمس الحرير . وكان إذا دخل عليه انسان ممن يعرفهم ومن لا يعرفهم اختلجت أعصابه ، فيسلم عليه فى حركة عصبية ترتعش لها يده ، ويمكث نحو دقيقتين فى هذه الرعشة فلا يطمئن الزائر إلى حديثه إلا بعد برهة ، أو بعد أن يشرب القهوة

وقد نصحه طبيبه كثيراً بالكف عن العمل والانتاج ، والانقطاع إلى الراحة من عناء الحياة ، ولكن العمل الأدبى له طبيعة ، والانتاج الشعرى له ديدن ، فكان من المحال أن يحقق رجاء الطبيب

واستمر يسهر الليل كله ، ويعانى قرض الشعر ، وتأليف الروايات ، حتى نزلت به المنية فجأة بعد ما مهد لها بهذا الضعف الجسمى ، والمجهود النفسى الذى كابده أربعين عاما ، فخلف للادب العربى ثروة ضخمة ، وبنى لنفسه مجداً خالداً

* * *

وكانت أوائل اكتوبر ، فاعتزمت جمعية القرش اقامة احتفال فى يوم ١٤ من هذا الشهر لافتتاح مصنع الطرابيش ، ورغبت اليه ان يتوج هذه الحفلة بقصيدة من قصائده ، فنظم لها هذه القصيدة :

الملك بالمال والرجال لم يبن ملك بغير مال

والمال ركن الشعوب يؤوى اليه فى السلم والقتال

ثم قال :

الحمـــد لله قام منا أواخـــر تمموا أوالى
وسد جيــل مكان جيل لله من ســـابق وتال

وما درى أحد ان أمير الشعراء سيغادر عالم الشقاء فى اليوم الذى تلقى فيه آخر قصيدة له وهو على فراش الموت

ففى اليوم السابق لهـذا اليوم أحس شوقى بتحسن فى صحته ، فطابت نفسه لصباح ذلك اليوم الهنىء الذى ذاق فيه من لذة الشفاء مالم يذقه منذ سنوات ، وكاد يستعيد بما خالجه من طرب وسرور بهجة الماضى ، وما طوى فيه من عيش ظليل ، وعهد باسم الوجنات جميل

وفى منتصف السابعة مساء ركب أمير الشعراء السيارة مع سكرتيره ، وذهب للرياضة فى مصر الجديدة ... وفى الطريق قال له :

— أرانى اليوم منشرح النفس جداً ، فانى أشعر براحة تامة ، واعتدال فى بنيتى ، وقد تناولت الغداء بشهوة

وفى عودته مر بأحد المطاعم ، فتناول فيه العشاء ثم توجه إلى دار الجهاد فدخل حجرة السكرتير ، وعلم الأستاذ توفيق دياب بقدومه ، فانتقل اليــه ، فقدم له شوقى بك سيجارة ، ولاحظ الاستاذ دياب انه يسعــل سعالا خفيفاً ، فسأله عما به ، فاجاب :

— ذلك برد بسيط ، وهو عارض منتشر فى هذه الأيام

— لعله من اختلاف الفصول

— أظن ذلك

ومكث شوقى الى الساعة الحادية عشرة ، ونهض قائلا : « أنى ذاهب إلى دارى لأستريح ، وألتمس شيئاً من الدفء »

وركب السيارة حتى وصــل إلى كرمة ابن هانىء ، وقبل أن يدخل غرفته وقف برهة فى الحديقة ، وقال لسكرتيره :

ـــ هيه كم قبراً تسع هذه الدار ؟

ـــ لماذا يا باشا نعود إلى هذا السؤال ؟ !

ـــ لا شىء . . لـكنه خاطر مر بنفسى كما مر بها منذ أيام

ـــ انه خاطر يمر كثيراً بنفوس الناس ، وهو وهم باطل

ـــ بل ان الموت حق . . ثم . . ألم أقل لك ان هذه الدار تسع خمسمائة قبر وانها تتسع لثلاثة آلاف من الأموات

ـــ لقد ذكرت لى انك بصحة جيدة ، فلماذا هذا الخاطر المخيف

ـــ لا شىء . . لا شىء . . اذهب ونم

وأوى أمير الشعراء إلى مضجعه ، وأراد النوم ، فاعتراه أرق وسعال ، فتدثر حتى دفىء ، لـكنه لم يسكن الى الدفء ، ولم يطمئن الى الفراش ، وشعر بآلام فى صدره ، ثم ضيق فى تنفسه فأيقظ الخادم وأمره ان يقوم باسعاف خاص بالتصلب الشريانى ، فلم يفده هذا الاسعاف . فامره أن يستدعى الدكتور جلاد ، وأن يوقظ أسرته

وكان الموت يسرع اليه الخطى ، وينشر أجنحته على سريره ، ويناجى شاعراً طالما ناجى النجوم فى أفلاكها ، والطير فى أجوائها ، والازهار على أفنانها ، وطوى القرون القهقرى حتى أتى الرشيد فى ناديه ، والمأمون فى مغانيه ، وسيف الدولة فى مجالس متنبيه ، فسحر النفوس بعجائب سحره ، وامتلك القلوب بعظمة شعره ، وشأى الأوائل بعظيم انتاجه ، وبزهم بفيض نفسه ، وباهر تفننه

وعاد الخادم ، فوجد سيده يجود بنفسه ، فطمأنه الى حضور الطبيب ، فقال شوقي :

ـــ لا أمل بعد الآن . ان أمرى قد انتهى ، فسلام على اولادى وأصدقائى

وحضرت السيدة زوجته وأولاده ، فرأوه فى النزع الأخير ، فارتاعوا . وجاء الطبيب ، فوجد الشاعر العظيم يختتم حياة لم تتح للعربيـة منذ أجيال

داود بركات

— لو بدأت حياتك يا أستاذ من جديد ، فأى الأعمال تختارها ؟

سألت المرحوم الاستاذ داود بركات هذا السؤال قبل موته بقليل ، فأجاب قائلا :

— اننى لأختار ألا تبدأ حياتى من جديد ، لأن الحياة ليست إلا وهماً وخيالا ، وهى كفاح شاق ، وقتال دائم ، ونزاع لا نهاية له بين بنى الانسان ، و بين الانسان والحيوان ، و بين الحيوان والطبيعة . ومالى هناء فى هذا الشقاء

— اذا فرضنا أنها عادت فاستأنفت دورتها من جديد ، فماذا تختار ؟

— لو عادت حياتى ، فبدأت ـ على الرغم منى ـ عهد شبابى لما اخترت عملا معيناً من الأعمال ، بل لتركت نفسى للمقادير ، وأسلمتها لاختيار ما تريده لى لا ما أريده أنا من الحرف والأعمال

— وهل تكون راضياً فى هذه الحال ؟

— نعم ، فقد قلت إن الحياة ليست إلا وهماً وخيالا ، وهى جديرة بأن لا يأسى عليها المرء

— إذن أنت متشائم من الحياة

— بالعكس لست متشائما ، بل متفائل كل التفاؤل ، ولا أرى فى أى عمل من الاعمال ما يدعو الى التشاؤم ، وكل عمل يتضمن الخير فى نفسه ، والتفاؤل فى نفسه

قلت : لكن النفس البشرية تميل الى الشىء دون الآخر

فقال : لا أظن ذلك ، بل هى تميل الى ما تتوهمه أصلح وأحسن إذا كانت فى نقيضه ، فاذا زاوله الانسان وخبره لم يرتح اليه ، وربما عاد فاستحسن ما كان يبغضه ، فانت الصحافى تمل من الصحافة ، وتتمنى ما تتوهمه أسعد حظا منها كالطب مثلا ، فاذا صرت طبيباً تمنيت أن تكون مهندساً ، ثم تمل الهندسة ، وتتمنى فناً آخر ، وقد تعود الى تفضيل الصحافة وهكذا . أرأيت ان الحياة ليست الا وهماً وخيالا . . . !

وكان الاستاذ داود بركات مستخفا بالحياة زاهداً فى زخرفها ، لم يطمئن اليها يوماً من الأيام . وقد نشأت هذه الحال فى نفسه من التجارب القاسية ، ومن الكفاح الشاق ، ومن الحوادث التى مرت به كما تمر الروايات بابطالها وعجائبها ، وافراحها وأشجانها ثم تضاء الانوار ، فاذا كل ما كان وهم من الاوهام ، أو حلم من الاحلام

وقد أفضى الىّ ذات مرة بأول ما كشف له عن حقيقة الحياة ، وغرس فى نفسه الاستخفاف بالدنيا ، فقال :

« كنت فى مقتبل حياتى أقطن فى بلدة « زفتى » بالقطر المصرى ، وكنت وقتئذ مدرساً للرياضة فى احدى المدارس ، فشبت حريق فى دار صديق لى ، وحاصرت النيران هذا الصديق بشكل مخيف هائل ، فالتمس صديقي النجاة من الهلاك فى حيرة شديدة ، صائحاً مستغيثا من ألسنة النيران التى تمتد اليه ، وتسرع لالتهامه ، والناس حوله حائرون يحاولون انقاذه فلا يستطيعون وأنا مضطرب جازع لعجزى عن انقاذ صديقى . وما من سبيل الى ذلك ، فهلعت نفسى ، وتشعع فؤادى لهذا المنظر المروع ـ منظر انسان يموت كرهاً وهو فى أكمل صحة ، بل منظر صديق لى ، وأخ عزيز يحترق أمامى بين ألسنة النيران!

« وعبثاً حاولنا انقاذ هذا المسكين ، فصرخ الصرخة الاخيرة ، واستسلم للهول وفاضت روحه بين النيران . فأثر هذا الحادث فى نفسى تأثيراً شديداً ، ومرضت بسببه عدة أيام ، وهانت عندى هـذه الحياة . وكتبت مقالا عنه فى جريدة

المحروسة فنشرته وأرسلت على اثره تطلب منى أن أتولى رئاسة التحرير بها ، فقبلت ، وكان ذلك مبدأ حياتى الصحافية »

بدأت حياة المرحوم داود بركات الصحافية بمأساة جعلته يستخف بالحياة ، ويحتقر شأنها ، ولا يحرص فيها على جاه أومال ، ولا يبالى بها أقبلت أم أدبرت. وإن كان لم يقصر فى عمل ، ولم يقعد عن واجب . وقد اشتغل فى الصحافة فى وقت لا تدر فيه ربحا كبيراً ، ولم تكن بالحرفة التى يطمع فيها الطامعون ، فصبر وصابر ، وجلد وجالد ، واستمر ٣٧ عاماً يخدم الصحافة حتى أزهرت ، وصار أثره فيها بارزاً ، فلقب « شيخ الصحافة » و « عميد الصحافيين »

ولم يجمع من وراء جهوده ثروة ولم يفز من خدماته برتبة ، وعاش طول حياته فقيراً ، وزهد فى الرتب والنياشين . وكنا اذا خاطبناه بقولنا :

— يا داود بك . . .

قال : « لست بيكا ، ولا باشا ، وانما أنا داود بركات »

ولفرط اخلاصه فى أداء الواجب ، وخدمة « الاهرام » الغراء التى كان يرأس تحريرها ، لم يركن للراحة صيفا ، أو شتاء . وكان اذا سافر الى لبنان ، أو الى مصيف آخر جعل الرحلة دراسة صحافية ، لا رياضة جسدية ، ثم يؤوب بالمقالات ينشرها على القراء . وكثيراً ما كلف نفسه الكتابة فى أثناء مرضه ، حتى أدركته الشيخوخة . وأصيب بمرض « تصلب الشرايين » ، فكان يغالب هذا المرض ، ويأبى الاستسلام لآلامه ، ويعمل جاهداً فى مكتبه متغلباً على ضعف جسمه بقوة عزيمته ، معتمداً فى شيخوخته على نشاط أعصابه ، حريصاً على مصلحة قرائه أكثر من حرصه على صحته . وقبل وفاته بأيام زرته فى مكتبه ، فوجدته قد بلغ منه الاجهاد ، واشتد به الاعياء . فسألته أن يشفق بنفسه ، ويطمئن الى الراحة ، فقال :

— لا راحة فى الصحافة ، ولا راحة فى الدنيا ، وإن الموت لاجازة كريمة للصحافى ، فما رأيت حرفة تشغل صاحبها حتى فى أوقات فراغه كالصحافة

وبقى فى عناء عمله الصحافى على الرغم من الداء، وآلام الشيخوخة، ونقول آلامها لا ضعفها، لأن داود بركات كان فى شيخوخته شابا فى نشاطه، فتى فى همته وجهاده. لكن قوة الجسد محدودة، فاضطر فى أيامه الأخيرة الى أن يعتكف، ورأى أن يستجم بشىء من الراحة ليستعيد صحته، فأبى القدر إلا أن يسوق اليه الاجل، فأصيب بالتهاب رئوى قبل وفاته بثلاثة أيام، فاستدعى له الاطباء، فلم يغن طب ولا دواء

* * *

اعتكف شيخ الصحافة فى الفراش يوفى للقدر دينه، لحظة لحظة، ونفساً نفسا، ويجود بما بقى له عنده من عزيمة قوية وهمة فتية. ويدفع بالضعف هذا النشاط الغريب، ويقضى بآلام المرض ما بقى له قبل المغيب، ويعانى الفصل الاخير من مأساة حياته التى فاضت بالمتاعب، واستقامت فى المصاعب، ويجود بما لم يضن به من حياة هانت عليه، فلم يحسب لها حسابا، ولم يقم لها وزناً، ولم يدخر لها من الصحة والنشب ما يحببها الى غيره، ويجلو وجهها حسناً باسماً، وعيشاً بهيجاً لا تعب فيه ولا آلام

اعتكف شيخ الصحافة، وقد رحب بتلك الاجازة ـ اجازة الموت ـ واطمأن الى ما ينتظره فيها من راحة سعيدة، وسلام لم يذق له طعما، ولم يعرف له عهداً منذ سبع وثلاثين سنة، ناضل فيها نضال الابطال، وجال فى ميدانها جولات خرج منها بالفوز الاوفر، فكان الصحافى الاكبر

ومع عصاميته وجهاده، وحسن بلائه، لم يفتن بمديح، ولم يته بفضل، ولم يفخر باعجاب، بل كان التواضع كله، وانكار الذات كله، والتفانى فى العمل وخدمة قرائه، حتى فنيت قوته، واحترقت ذبالته

* * *

وعانى شيخ الصحافة ثلاثة أيام هائلة، وكان اليوم الخامس من نوفمبر سنة ١٩٣٣ فساءت الحال، وادلهم الخطر، وعز الامل

وأقبل مساء ذلك اليوم ، فكانت ليلة ليلاء ، شديدة البأس عظيمة البلاء احتدم فيها النزاع بين الحياة والموت من الغروب الى انبلاج الفجر ، وتدافعت عليه سكرات الموت ، فكان محتفظا بالكثير من ادراكه ، شاعراً بما حوله . حتى إذا كان النزع الاخير أصابته رعشة ، فأشفق عليه طبيبه الدكتور محجوب ثابت ، وقال له :

— داود . لا تخف . . .

ففتح عينيه ، وابتسم ابتسامة تنم عن الاطمئنان الى المصير الاخير ، وأجابه بلسان عربي فصيح :

— ومتى عهدتني جباناً !

أجل ، ومتى عهد الناس شيخ الصحافة جبانا ، وهو الذى حمل عبء الحياة زمناً طويلا ، فما ضجر ، ولا سئم ، ولا شكا ولا نقم ، ولا قصر فى واجب ، ولا اهتز لخطب من الخطوب ، ولا فزع لحادث من الحوادث ، ولا نالت من نفسه متاعب الدهر ، ولا أثرت فى عزمه مصاعب الصحافة ، ولا غيرت من أخلاقه صدمات الحياة ، ولا ضاقت نفسه بمضايقات الناس

بل كان الكفاح الدائم ، والصدر الرحب ، والصبر الطويل ، والشجاعة التى لا يعلق بها جبن ، والعطف الذى لا تلحقه قسوة ، والاخلاص الذى لا تشوبه مداجاة ، والعمل الذى لا يقطعه ملل ، حتى خمد هذا اللهيب ، وانتهى هذا العراك العنيف ، وصافح شيخ الصحافة الموت بسلام

احمد زكى باشا

— سؤال يا شيخ العروبة . . !

— ماذا يا فتى الصحافة ؟! . .

— حينما تبلغ الثمانين ، فماذا أنت فاعل ؟ . . .

فدق بيده على صدرى فى لطف كعادته رحمه الله اذا أنكر السؤال ، أو وجد فيه تعريضاً بكبر السن ، وقال :

— وهل رأيتنى جاوزت الرابعة والثلاثين !

فقلت : لا يا باشا ، كما أننى لا أرى نفسى جاوزت الرابعة من العمر ، ولو أننى فى الثلاثين !

فضحك ، وقال : « دعنى لأكتب لك رسالة فى هذا الموضوع »

وبعد يومين أرسل الى مكتبى رسولا يحمل اجابته فى رسالة طويلة ، بها هذه الفقرات :

« لك أن تصدقنى ، بل عليك أن تثق بقولى ، فانى سأفضى اليك بالحق الذى فى قرارة قلبى ، والذى سألقى عليه ربى

« أنت تسألنى عما أفعل فيما لو بلغت الثمانين ، فاعلم عافاك الله ، ومد فى عمرك بقدر ما تريد ، اننى ما أود أن ابلغ الثمانين بالمعنى الذى تشير اليه أنت ، وبالعدد الذى تعارف عليه أهل السنين والحساب ، فانت والناس تشهدون إننى ما أزال أعمل كما لو كنت فى الرابعة والثلاثين

«هو زعم منى فيما يتعلق بالعمل والانتاج ومجاهدة الحياة ، وأما السن ، فقد

وقفت بها و وقفت هى معى عند هذا الحد « الرابعة والثلاثين » ، وكل منا يناجى صاحبه بلسان القلب الذى لا يسمعه العذول :

وقف الهوى بى حيث أنت فليس لى
متأخر عنـــه ولا متقدم

« الأولى ثم الأولى توجيه السؤال لمن يريد الحياة حتى يرده الله الى هذا الطور من العمر

« أما أنا ، فأقسم بالله يميناً برة غير حانث فيهـا ولا متأول ، اننى ما أود الوصول الى الثمانين بالمعنى الذى يريده المتشبثون بالحيـاة ، و إذا ما وصلتها رغم أنفى ، فما لى هناء بها ولا عزاء ، سوى موالاة الكفاح لخدمة العروبة والاسلام ، سوى مواصلة السعى لتقويم الأغلاط الجارية على أقلام الكتاب ، سوى اقامة الحجة على نصرة الصواب

« و إلا ، فالى الاعتكاف فى المسجد الذى أتولى انشاءه بنفسى ليكون تحفة من تحف الفن العربى ، وطرفة من طرائف الطراز الاسلامى بجـانب دار العروبة على ساحل النيل بالجيزة

« أهذه زهادة من غير زاهد ، أم هو تجرد ممن لا يريد أن ينقطع عن عمله من الدنيا ؟ . . لا هذا ولا ذاك . . نعم إن المثل الدارج يقول : « طول العمر يبلغ الأمل » ، ونعم إن العامة يقولون : « اللى يعيش ياما يشوف ، واللى يمشى يشوف أكتر » لـكن الطغرائى أبعد نظراً ، وأعمق فـكراً ، وأصدق قيلا :

تقدمتنى أناس كان خطوهمو
وراء خطوى اذ أمشى على مهل
هـــذا جزاء امرىء أقرانه درجوا
من قبـله ، فتمنى فسحة الأجـل

« فقد رأيت ما كان يحسب ، وحسبى الله . . . » ! !

وكانت هذه الرسالة قبل وفاته بأيام ، وكانت آخر مقالة كتبها فى حياته ،

وكأنما كان يشعر وهو يكتبها بدنو أجله ، فكتب : « الأولى ثم الأولى توجيه السؤال لمن يريد الحياة » وأقسم غير حانث أنه لا يود الوصول إلى الثمانين ، وإذا ما وصلها « برغم أنفه » فما له بها هناء ولا عزاء ، وإن لم يبلغها فالى الاعتكاف فى مسجده ، وحسبه الله

وقد اعتكف الاعتكاف الأخير الذى لا رجوع فيه إلى هذه الدنيا ، وثوت جثته فى المسجد الزكى الذى عنى ببنائه قبل وفاته بأربع سنوات ولم يتمه ، والذى ود أن يفاخر به مسجد السلطان حسن ! — كما كان يقول بلطف بين أصدقائه — لا بل ود أن يفاخر به هرم الجيزة الأكبر فى متانته وخلوده ، ويبارى به الأزهر فى أفخم عهوده . . . ! وقد لامه بعضهم فى بناء هذا المسجد ، والمساجد فى القاهرة كثيرة ، فقال لى رحمه الله :

« ترى ما أنا عليه من حال ، وقد حرمت من الأولاد ، فلم أعقب منهم أحداً ، وأعطانى الله فضلا من الرزق أحببت أن أبنى منه لنفسى مقبرة ، وإلى جانبها هذا المسجد الذى أحب أن ينتفع به أهل الجيزة بالعبادة فيه ، فتصلنى من هذه العبادة رحمة الله . والجيزة كما تراها خالية من المساجد الجميلة ، وأهل الجيزة جديرون بمثل هذا المسجد ، وقد تبرعت لجمعية الاسعاف بقطعة أرض كبيرة ، أما ما يريده بعضهم من بناء مدرسة أو ملجأ ، فالحكومة أقدر منى على ذلك »

وقبل وفاته باسبوع زرته ، فقلت له أثناء حديثنا : « ما هو شعارك فى الحياة يا باشا ؟ » فقال ما فى هذه الأبيات :

وقفت على إحياء قومى يراعتى ... وقلبى ، وهل إلا اليراعة والقلب
ولى كل يوم موقف ومقالة ... أنادى ليوث العرب ويحكمو هبوا
فاما حياة تبعث الشرق ناهضاً ... وإما فناء ، وهو ما يرقب الغرب »

ونهضت للاستئذان ، وكان وقت العشاء ، فأقسم ألا أبرح الدار حتى نتعشى معه . وكان أمره دائماً نافذاً على زواره ما داموا فى داره ، فأجبت والحاضرين الدعوة . . وجاء الطعام ، فكان « سمكا بالصينية » فراعنى أنه

محروق بحالة غير عادية ، وكان وجهه قاتماً كأنما يعلوه ثوب الحداد ، فتشاءمت في نفسي ، وأراد الباشا أن يستبدل بالطعـــام سواه ، فأبينا إلا أن نأكل « قسمتنا » !

ثم جلسنا نتسامر في دار العروبة ، كعادتنا المحبوبة ، وكلما هممنا بالرحيل أجلسنا الباشا ، وقال :

« أقعدوا للوداع ، فانى مسافر بعد أيام »

وكان رحمه الله قد استأجر داراً ببور سعيد ليصيف بها ، و بعث بأسرته اليها ، ووعد باللحاق بها بعد أيام ، فأراد أن يودع زواره بهذه الجلسة اللطيفة ، لأنه مسافر ، وما درينا أنها جلسة الوداع الأخير ، وأن السفر لم يكن الى مدينة من مدن الدنيا ، ولا إلى دار من دور المصيف ، بل كان إلى مدينة السابقين ، والى دار الخلد والنعيم

وكان اليوم الثانى من يوليه سنة ١٩٣٤ فخرج من دار العروبة بسيارته لبعض شأنه ، وجهد فى طوافه وسعيه فغمره العرق ، ورزمته حرارة الجو ، فآب إلى داره ، و بينما هو يخلع ملابسه ناداه مناد من حديقة الدار ، فتردد فى الخروج اليه فى هذه الحال ، ولـكن المنادى ألح فى ندائه ، وكأنما كان ينادى بلسان عزرائيل

فخرج زكى باشا إلى الشرفة المطلة على النيل ، والجو رطب والهواء عليل ، فأصيب بالتهاب رئوى

سعل زكى باشا سعلة خفيفـــة لم يبال بها ، وما كان ليبالى بعارض بسيط كهذا العارض ، وقد كانت بنيته كبنية شاب فى ريعان الشباب ، وسهر كعادته فى مساء ذلك اليوم الى منتصف الليل

وفى صباح الثلاثاء ، اصطحب صديقنا الأستاذ سيد ابراهيم الخطاط ، وذهب إلى « الحداد » الذى يقوم له بصنع نوافذ المسجد ، وسأله عما طلبه ، فأنبأه الحداد أنه لم ينته منه بعد ، فقال له :

— إسمع .. إذا لم تخلص الحديد قبل ٣ أيام مش حاتعرف تاخد فلوسك . . أحسن أنا مسافر . . واسأل السيد . . !

وترك الحداد ، وانصرف ، وما كان يعتوره فى هـذا اليوم غير السعال الخفيف . . وفى صباح الأربعاء اشتد به الالتهاب ، فزاره الدكتور أحمد عيسى ، فوجده فى حال شديدة تحتاج الى العناية ، ثم زاره فى المساء ، فوجده قد أشرف على الخطر ، واستبد به الداء ، وعز فى رأى الطبيب الشفاء . و بدا الموت فى دار العروبة فى تلك الليلة مقبلا ناشراً أجنحته مستمداً من الظلام ظلاماً ، حاشداً من الأحزان لوعة وآلاماً . وكان الأهل والأصدقاء مشفقين من هذا الحادث الجلل ، مذعورين من قدوم ذلك اليوم المشئوم ـ يوم فقده ، واختفاء طالع سعده ، ولعل المريض الكبير كان يرى ذلك كله ، أو كان يرى أكثر مما رأوا من علامات النهاية ، ودلائل الدار الأخرى ، وكان يشعر بما لا يشعرون به ، ويعانى أعظم مما يعانون . . ومع ذلك لم يستسلم للضعف ، ولم يرقد على فراش للمرض ، ولم يجزع من قدوم الموت ، ولم يغير شيئاً من عادته بين زواره وأصدقائه ، فحادثهم وسامرهم حتى ليلة وفاته . ولم يغب عن الوجود إلا بعضاً من الوقت فى صباح الخامس من يوليه ، وأفاق من إغمائه فوجد زوجته بجواره وقد عادت من بور سعيد جازعة والهة ، فقال لها :

— تشجعى . . .

فقالت :

— وأين لى الشجاعة من غيرك ؟ ! . .

فقال :

ـ تشجعى . . تشجعى . . ولا تحزنى

وحقاً لقد كان شيخ العروبة ملء السمع والبصر ، ملء النفس والقلب ، وكان أمة وحده ، وأنساً جميلا ، وقوة للضعيف ، وعطفاً على العاثر ، وصوتاً داوياً للاشادة بمجد العرب وحضارة الاسلام

وكان عصر ذلك اليوم الأخير فهدأ الداء ، ونشط شيخ العروبة ، فنهض وارتدى عباءته العربية ، وأمسك عصاه ، وأمر أن يعدوا له السيارة ليذهب الى الأهرام ، فاشفق عليه زواره الموجودون عنده فى تلك الساعة ، ومنعوه ، فألح فى الخروج ، وألحوا هم فى المنع ، حتى نزل عند رأيهم

وكانت هذه أول مرة لا ينفذ فيها لشيخ العروبة أمر على زواره ، أو أول مرة ينفذ فيها أمرهم عليه ، فقد كان الخطر ماثلا ، والخطب مجسما أمام الجميع على الرغم من نشاطه ، وقوة عزيمته ، وتحديه لكل شيء حتى المرض والموت

جلس زكى باشا ، وقد بدا عليه الاعياء ، فتخاذلت بهجته ، وتضاءلت بشاشته ، وأصابه ما يصيب الزهرة من تراخ ونحول قبيل الذبول ، واعتراه ما يعترى الشمس من اصفرار وشحوب قبيل الغروب ، وكأن هذه البهجة التى ملأت كل مكان ، وهذه البشاشة التى سخرت بعبوس الزمان ، وهذه النضارة التى لم يؤثر فيها كر الليالى والأيام ، وهذه الحياة الساطعة التى لم تطفىء جذوتها الشيخوخة ، أو تضعف لمعانها السبعون ، وكأن هذا النشاط الذى يزرى بنشاط الشباب ، وهذه القوة التى بقيت فى ريعان الفتوة ، وهذا المحيا الطلق ، وهاتان العينان النضاختان بالتودد والعطف

كأن ذلك كله ، وقد نزلت النازلة ، وعدت العادية ، وحم القضاء ، لم يملأ دار العروبة التى كانت بالجيزة سيدة الديار ، بل كانت فى مصر وحيدة فى تعارف العلماء والادباء ، وتآلف الزوار

وتقدم المساء ، فتقدم الموت بخطواته ، وكان شيخ العروبة جالساً على مقعده فى صدر حجرته ، وحوله بعض الأصدقاء ، وفى الحادية عشرة زاره صديقنا الدكتور مختار عبد اللطيف ، فشكى له ضيقه بالحجرة ، ورغبته فى الخروج ، ثم نهض واقفاً ولبس عباءته وأمسك عصاه ، ونادى الخادم ، وأمره أن يسرع فى طلب السيارة ، فقال له الدكتور مختار :

— الى أين يا باشا ؟

فقال :

— الى الهرم . . الى الهرم . . لقد ضقت باعتكافى يومين

ونادى الخادم مرة أخرى : « أسرع الى السائق ليعد السيارة حالا »

وعبثا حاول الدكتور أن يثنيه عن عزمه ، وكأنه وجد فى الهرم نجاة مما هو فيه ، وفراراً من شبح الموت المقبل عليه ، أو لعله أراد أن يختم حياته التى ضحاها فى خدمة التاريخ بجوار أعظم بناء خلد فى التاريخ

وعاد مرة أخرى فناهض صديقه فى الخروج الى الهرم ، والصديق يمنعه ، ويلح فى المنع ، وهو يأبى الا أن ينفذ أمره ، وضوعفت قوته فى تلك الساعة ، فكان يدفع صديقه ، والصديق يدافعه اشفاقا على حياته . وانهما لكذلك إذا بالموت يخطو خطوته الأخيرة ، فتأوه شيخ العروبة تأوهاً شديداً فاضت فيه روحه الزكية فوقع على مقعده جثة هامدة

مات شيخ العروبة ، وقد قطب للموت قبل وفاته بساعات ، وبدت عليه نذره المروعة قبل صعود الروح ، حتى إذا قضى ، وحمل الى فراشه ، انقضى الشحوب ، وزال الذبول ، وعادت تلك البهجة الجذابة الى محياه ، ورجعت تلك النضرة الخلابة التى جذبت اليه القلوب

وكان على فراش الموت حياً فى ملامحه الباسمة ناطقاً فى جثمانه الجميل ، وفتح عينيه حتى حسبه الناظرون اليه قد عاد الى الحياة ، وظنه الواقفون حوله قد أفاق من اغماء ، ثم ما لبثوا أن أيقنوا بنزول القضاء

زاره حتفه فقطب للمو ت والقى من بعده التقطيبا

زودوه طيبا ليلحق بالنا س وحسب الدفين بالترب طيبا

نام فى قبره ووسد يمنا ه فخلناه قام فينا خطيبا

مهازل الموت

« نختم هذا الكتاب بهذا الفصل الفكاهى عن الموت ، وكم للموت من فـكاهة ، وكم له من مهزلة كما ترى فى هذه السطور »

لم يسمع أحد ان انسانا ابتلع سمكة فمات ، ولـكن سمع الناس كثيراً أن حيوانا بحرياً افترس انسانا أو ابتلعه ، والقصة التى نسوقها هنا من أعجب حوادث الموت ، وهى مهزلة من مهازله

سمكة عزرائيل

فقد كان أبو بكر صدقى الصياد ، وهو من أهالى سدمنت بمديرية الشرقية يصطاد يوماً كعادته بترعة الصافورية وألقى شباكه عدة مرات ، فلم يظفر فيها بشىء ، فانتقل من مكانه الى مكان آخر ، وألقى شباكه ، فعادت فارغة ، فأخذ ينتقل هنا وهناك طول يومه على غير جدوى ، فغاظه هذا النحس الذى لازمه ذلك اليوم ، وأخذ يسخط على السمك وصيد السمك بصوت عال سمعه الريفيون فضجوا بالضحك

وألقى أبو بكر الشبكة آخر مرة ، وجذبها ، فاذا كل ما فيها سمكة لا يزيد طولهـا عن خمسة سنتيمترات فأمسكها بيده ، وصاح لاعناً السمك ، فاغراً فمه بالسخط على صيده ، واذا السمكة تفلت من يده ، وتقفز فى حلقه ، وتحشر فيـه حشراً لا تخرج ولا تدخل حتى اختنق الرجل ، ومات ضحية هذه السمكة ، فهل كانت سمكة عزرائيل .. !

برص الموت

ومات السيد أمين رشيد نسيب الاستاذ عبد الله بك عفيفى فى حادث يعد

مهزلة عجيبة من مهازل الموت ، فقد كان جالساً يوم وفاته فى قصره بالمطرية ــ وهو القصر الذى سكنه أمير الشعراء أحمد شوقى بك فى عهد الخديو عباس ــ فرأى برصاً فى أعلى النافذة ، فنادى أحد الخدم ، وأمره بطرده أو قتله ، فأخذ الخادم يطارده على غير جدوى ، فضاق السيد أمين ذرعاً بهذه المطاردة ، ونهض هو من مجلسه ، وتناول عصا طويلة ، وتوجه الى حيث كان البرص واقفاً ، وكانت النافذة مفتوحة ، فوقف عليها ، وضرب البرص بعصاه ، فسقط ، ولكن يشاء الحظ العاثر ، أو يشاء الموت الهازل أن يسقط البرص فى صدره ، فذعر السيد أمين ، وقفز قفزة قوية من هذه المفاجأة ، فهوى من النافذة التى لا تعلو عن الارض بغير أربعة أمتار ، فأصيب اصابة مات بها بعد ساعتين ، وكانت هذه النهاية حقاً من مهازل الموت

نحلة تغرق رجلا

وكان راشد محمد راشد ، وهو من سائقى السيارات بين القاهرة والزقازيق قادما ذات يوم بسيارته من الزقازيق إلى القاهرة ، فلما بلغ « تل روزن » وأدار عجلة القيادة عند المنحنى المحاذى للترعة دخلت نحلة صغيرة فى أذنه ، وأخذت تطن فيها ، فرفع يده من فوق عجلة القيادة ليطردها ، فالتوت يده الأخرى بالعجلة ، ففقدت السيارة توازنها ، فهوت به فى الترعة ، ومات المسكين ، وماتت النحلة داخل أذنه (طبعاً !) . وكأنها شاءت أن تنتحر هذا الانتحار السخيف . . !

حدأة تقتل طفلا

وصعد أحد أطفال « عرب يسار » المجاورين لمدافن الامام الشافعى ، إلى سطح داره ، فوجد « حدأة » وضعت بيضها على طرف السطح ، فتسلل محاولا اغتصاب البيض ، فأبصرته الحدأة عن بعد ، فأسرعت اليه ، ولما هم بأخذه

ضربته على ذراعه ضربة شديدة اختل بها توازنه ، فسقط من السطح ، فتهشمت رأسه ، ومات في الحال

يرثي نفسه

ومرض أحد العلماء الغربيين مرضاً شديداً ، وأيقن بالموت ، لكنه أراد أن يقرأ ما ينشر عنه بعد وفاته ، فكتب رثاء لنفسه وبعث به الى احدى الجرائد ، فنشرته ، وتناول الجريدة ، وقرأ المقال حتى اذا انتهى منه فاضت روحه . . !

وكان أحد المؤلفين يطبع كتابا ، فاعتراه مرض شديد ، فأبى إلا أن يستمر في تصحيح كتابه ، فكانوا يرسلون اليه البروفات ، فيصححها على الرغم من آلامه ، حتى كانت البروفة الأخيرة وكان يعاني سكرات الموت فأرسلوها اليه طوعاً لأمره ، وانتظر الموت حتى قرأها وكتب عليها : « تطبع » . ثم خطا اليه فلفظ النفس الاخير

المحرم سنة ١٣٥٨ هـ
فبراير سنة ١٩٣٩ م

الفهرس

كتب المؤلف

* **فاروق الاول** ـ نشرته دار الهلال سنة ١٩٣٦

* **موقف الملك فؤاد من القضية الوطنية والدستور** ـ تحت الطبع

* **اهرام اليتيم** ـ قصة تاريخية مع دراسات عن عهد وقوعها وعن فن القصة (تحت الطبع)

* **على فراش الموت** ـ نشرته دار الهلال فى فبراير ١٩٣٩

* **نور ونار** ـ دراسات فنية وعلمية وأدبية (تحت الطبع)

* **أعلام الشرق** ـ تراجم بأسلوب حديث لأعظم أبطال الشرق العربي (تحت الطبع)

* **فن الحب** ـ وهو يحوى فصولا عن الحب وفلسفة الحب (تحت الطبع).

